اعرف الحق تعرف اهله
(٣٦)

المواعظ الفاخرة

فى امور الآخرة

تأليف

آية الله السيد على الحسينى الميلانى

مركز الحقائق الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المركز

نظراً للحاجة الماسّة والضرورة الملحّة لنشر العقائد الحقّة والتعريف بالفكر الشيعي، بالبراهين العقليّة المتقنة والأدلّة النقلية من الكتاب والسنّة، من أجل ترسيخها في أذهان المؤمنين، ودفع الشبهات المثارة حولها من قبل المخالفين، فقد بادر (مركز الحقائق الاسلامية) بإخراج سلسلة علمية ـ عقائدية، متنوّعة، تميّزت بجامعيتها بين العمق في النظر والقوّة في الاستدلال والوضوح في البيان، تحت عنوان (إعرف الحق تعرف أهله)، وهي من بحوث سماحة الفقيه المحقق آية الله الحاج السيد علي الحسيني الميلاني (دام ظلّه)، آملين أن نكون قد قمنا ببعض الواجب الملقى على عواتقنا في هذه الأيام التي كثرت فيها الشبهات وازدادت الانحرافات، سائلين الله عزّ وجلّ أن يسدّد خطانا على نهج الكتاب والعترة الطاهرة كما أوصى الرسول الأكرم صلّى الله عليه وآله وسلّم، والحمد لله رب العالمين.

مركز الحقائق الاسلامية

الحمد لله رب العالمين، والصّلاة والسّلام على خير خلقه محمّد وآله الطّاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين من الأوّلين والآخرين.

وبعد:

فقد ألّف علماء الفريقين كتباً عديدة في (امور الآخرة).

وكنت قد ألّفت في سالف الزمان كتاب (الإعتقاد بالمعاد) وفرغت من تبييضه في أوائل السنة (١٣٩١) من الهجرة النبويّة المباركة، وجعلت له خاتمةً تعرّضت فيها لثلاثة من البحوث المتعلّقة بالمعاد، وهي: الميزان وتطاير الكتب وإنطاق الجوارح.

ثم عقّبتها ببحثين آخرين، لشدّة مناسبتهما للمعاد:

أحدهما: الشفاعة.

والآخر: التوبة.

وقد كانت البحوث الخمسة على ضوء ظواهر آيات الكتاب

والروايات عن النبي وآله المعصومين عليهم السّلام، مع ذكر كلمات أعلام الطائفة في التفسير والحديث والكلام في كلّ بحث، وقلّما تطرّقت لتفاصيل الخلافات الكلاميّة.

والآن... فقد عزمنا على نشر البحوث الخمسة في رسالة أسميناها بـ(المواعظ الفاخرة في امور الآخرة) لما فيها ـ بالإضافة إلى كونها مسائل يجب على كلّ مؤمن الاعتقاد بها ـ من الأثر البالغ من الناحيّة التربويّة، وذلك، لأنها ـ بمجموعها ـ تجعل الإنسان المؤمن (بين اليأس والرجاء)، ولا يخفى على أهل المعرفة أنّ إيجاد هذه الحالة من أولى اهتمامات الشّريعة الاسلاميّة المقدّسة، في تعاليمها القيّمة، وأُلّفت من أجلها الكتب الأخلاقيّة ووضعت البحوث العلميّة.

ونسأل الله سبحانه أنْ ينفع به المؤمنين، بمحمّد وآله الطّاهرين.

علي الحسيني الميلاني

١٤٣١

البحث الأوّل

في الميزان

يجب التّصديق بـ«الميزان» الّتي تنصب يوم القيامة لأعمال المكلّفين، والقدر الواجب هو: التّصديق الإجمالي لا معرفة حقيقتها وكيفيّتها وماهيّتها.

وقد ثبت الميزان في الآخرة بالكتاب والسّنة والإجماع، بعد حكم العقل بإمكانه.

دليله من الكتاب

وفي القرآن الكريم آياتٌ عديدةٌ في الميزان:

١ ـ قوله تعالى: (**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِما كانُوا بِآياتِنا يَظْلِمُونَ**)[١].

٢ ـ قوله تعالى: (**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّة مِنْ خَرْدَل أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ**)[٢].

٣ ـ قوله تعالى: (**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ فَأُولئِكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خالِدُونَ**)[٣].

٤ ـ قوله تعالى: (**فَأَمّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ * فَهُوَ فِي عيشَة راضِيَة * وَأَمّا مَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ * فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ * وَما أَدْراكَ ما هِيَهْ * نارٌ حامِيَةٌ**)[٤].

دليله من السّنة

ويدلّ على الميزان في السّنة أخبارٌ عديدةٌ منها:

١ ـ عن عليّ بن الحسين عليهما السّلام قال: قال رسول اللهّ صلّى الله عليه وآله وسلّم: «ما يوضع في ميزان امرئ يوم القيامة أفضل من حسن الخلق»[٥].

---

(١) سورة الأعراف: الآية ٨ ـ ٩.

(٢) سورة الأنبياء: الآية ٤٧.

(٣) سورة المؤمنون: الآية ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٤) سورة القارعة: الآية ٦ ـ ١١.

(٥) الكافي ٩٩/٢، باب حسن الخلق، الرّقم ٢، البحار ٧ / ٢٤٩، الرّقم ٧، عنه، وسائل الشّيعة ١٢ / ١٥١، باب استحباب حسن الخلق مع النّاس، الرّقم ١٣، و عيون أخبارالرّضا عليه السّلام ١ / ٤٠ ـ ٤١، الرّقم ٩٨، وفيه كذا: ما من شيء أثقل في الميزان من حسن الخلق.

٢ ـ وعنه أيضاً عليه الصّلاة والسّلام: فيما كان يعظ به: «ثمّ رجع

القول من الله في الكتاب على أهل المعاصي والذّنوب، فقال عزّوجلّ: (**وَلَئِنْ مَسَّتْهُمْ نَفْحَةٌ مِنْ عَذابِ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ يا وَيْلَنا إِنّا كُنّا ظالِمِينَ**)(٦)فإن قلتم أيّها النّاس: إنّ الله عزّوجلّ إنّما عنى بهذا أهل الشّرك، فكيف ذلك وهو يقول: (**وَنَضَعُ الْمَوازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كانَ مِثْقالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَل أَتَيْنا بِها وَكَفى بِنا حاسِبِينَ**)(٧).

إعلموا عباد الله: أنّ أهل الشّرك لا ينصب لهم الموازين ولا ينشر لهم الدّواوين، وإنّما يحشرون إلى جهنّم زمراً، وإنّما نصب الموازين ونشر الدّواوين لأهل الإسلام...»(٨).

٣ ـ قال هشام بن الحكم رحمه الله: سأل الزّنديق أبا عبدالله عليه السّلام: فقال: أو ليس توزن الأعمال؟ «قال: لا، إنّ الأعمال ليست بأجسام، وإنّما هي صفة ما عملوا، وإنّما يحتاج إلى وزن الشّيء من جهل عدد الأشياء، ولا يعرف ثقلها أو خفّتها، وإنّ الله لا يخفى عليه شيءٌ. قال:

فما معنى الميزان؟ قال عليه السّلام: العدل، قال: فما معناه في كتابه: (**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ**)؟ قال: فمن رجح عمله»(٩).

٤ ـ عن الإمام الرّضا عليه السّلام فيما كتب للمأمون: «ويؤمن بعذاب القبر، ومنكر ونكير، والبعث بعد الموت، والميزان، والصّراط، والبرائة من الّذين ظلموا آل محمّد صلّى الله عليهم أجمعين»(١٠).

٥ ـ عن الإمام الرّضا عليه الصّلاة والسّلام عن آبائه عن أمير المؤمنين عليهم الصّلاة والسّلام عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم في خطبة له طويلة في فضل شهر رمضان: «... ومن أكثر فيه من الصّلاة عليّ، ثقّل الله ميزانه يوم تخفّف الموازين...»(١١).

وقد أشار أمير المؤمنين عليه السّلام في خطب عديدة له إلى

الميزان، كما وردت روايات أخرى فيه...(١٢) وهناك رواياتٌ رواها العّامة فراجعها(١٣).

---

(٦) سورة الأنبياء، الآية: ٤٦.

(٧) سورة الأنبياء، الآية: ٤٧.

(٨) الكافي ٨ / ٧٤ ـ ٧٥، خطبة عليّ بن الحسين عليهما السّلام وموعظته النّاس في كلّ يوم جمعة، الرّقم ٢٩، البحار ٧ / ٢٥٠، الرّقم ٨ ، عنه، مجموعة الشّيخ ورّام ٢ / ٤٩، الأمالي للصدوق: ٥٩٥ و نصّ الخبر في العيون ١ / ٣٧، الرّقم ٦٦ على أنّ المشرك لا يحاسب، بل يؤمربه إلى النّار.

(٩) الإحتجاج ٢ / ٩٨ ـ ٩٩ فيمااحتجّ الصّادق عليه السّلام على الزّنديق وبيان مذهب التّناسخ، ورواه البحار ٧ / ٢٤٨ ـ ٢٤٩، الرّقم ٣ عنه، وفيه: وخفّتها.

(١٠) عيون أخبارالرّضا عليه السّلام ١ / ١٣٣ باب ٣٥ ما كتبه الرّضا عليه السّلام للمأمون في محض الإسلام وشرائع الدّين، والبحار ١٠ / ٣٥٨، ذيل الرّقم ١، عنه وفيه: تؤمن بدل: يؤمن.

(١١) فضائل الأشهرالثّلاثة للصّدوق: ٧٨، الرّقم ٦١، والأمالي: ١٥٥ المجلس العشرون، الرّقم: ٤، والعيون ٢ / ٢٦٦ الباب ٢٨، الرّقم ٥٣، والوسائل ١٠ / ٣١٤ باب تأكد استحباب الإجتهاد في العبادة، الرّقم ٢٠، والبحار ٩٣ / ٣٥٧، الرّقم ٢٥.

(١٢) الكافي ٢ / ٥٠٦، الرّقم ٢، ومن لا يحضره الفقيه ١ / ٢٠٧، الرّقم ٢، و ٢ / ٥٨٤ عن الرّضا عليه السّلام قال: من زارني على بعد داري أتيته يوم القيامة في ثلاثة مواطن حتّى أخلصه من أهوالها: إذا تطائرالكتب يميناً وشمالاً، وعند الصّراط، وعند الميزان.

(١٣) مسند أحمد ٢ / ١٨٦ و ٢٢٥، وسنن الدّارمي ٩/١، وصحيح البخاري ٧ / ١٦٨، وصحيح مسلم ٨ / ٧٠، وسنن ابن ماجه ١ / ١٠٣، وتفسير القرطبي ١ / ٦٧ و ٤ / ١٦٦ و ٧ / ١٦٥، وزاد المسير ٣ / ١١٥، والدّرّ المنثور ٢ / ٩، و... .

من كلمات العلماء في وجوب التّصديق بها

قد ثبت أنّ الطّريق إلى معرفة الميزان ـ كغيرها ممّا يتعلّق بالآخرة ـ هو السّمع، وإخبار الصّادق به.

فمن المناسب أن ننقل بعض كلمات العلماء الصّريحة في وجوب الإذعان بالميزان و أنّ منكرها كافرٌ، ليتّضح المراد من الآيات والرّوايات.

١ ـ قال الشّيخ الصّدوق رحمه اللّه: باب الإعتقاد في الحساب والموازين:

إعتقادنا في الحساب أنّه حقٌّ...[١٤].

وسئل الصّادق عن قول اللّه تعالى: (**وَنَضَعُ الْمَوازينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا**): قال عليه السّلام: «الموازين: الأنبياء والأوصياء...»[١٥].

٢ ـ وقال المحقّق الطّوسي رحمه اللّه:

وسائر السّمعيات من الميزان والصّراط والحساب وتطائر الكتب ممكنةٌ دلّ السّمع على ثبوتها، فيجب التّصديق بها[١٦].

٣ ـ وقال العلاّمة رحمه اللّه:

ويجب الإقرار بكلّ ما جاء به النّبيّ صلّى اللّه عليه وآله وسلّم. فمن ذلك: الصّراط و الميزان وإنطاق الجوارح وتطائر الكتب لإمكانها، وقد أخبر الصّادق بها، فيجب الإعتراف بها[١٧].

٤ ـ وقال الفاضل المقداد السّيوري رحمه اللّه مثله[١٨].

٥ ـ وقال الشيخ العلاّمة المجلسي رحمه اللّه بعد كلام له:

فنحن نؤمن بالميزان، ونردّ علمه إلى حملة القرآن، ولا نتكلّف علم ما لم يوضح لنا بصريح البيان، واللّه الموفّق وعليه التّكلان[١٩].

معنى الميزان وكيفيّة الوزن

إختلف علماء المسلمين في معنى الميزان، والمراد منها في الأخبار والقرآن، على أقوال عديدة، لا بأس بالإطّلاع عليها.

الأوّل: إنّه الأنبياء والأوصياء. واختار هذا القول الشّيخ الصّدوق رحمه اللّه[٢٠].

---

(١٤) تصحيح إعتقادات الإمامية: ١١٤.

(١٥) معاني الأخبار: ٣١ ـ ٣٢ باب معنى الموازين، الرّقم ١، والبحار ٧ / ٢٥١.

(١٦) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٧٥، المسألة الرّابعة عشرة.

(١٧) النّافع يوم الحشر في شرح الباب الحاديعشر: ١٢١، الفصل السّابع في المعاد.

(١٨) نفس المصدر.

(١٩) البحار ٧ / ٢٥٣ الباب ١٠.

(٢٠) كما هو ظاهر كلامه المتقدّم نقله في الصفحة السّابقة.

وممّن اختاره: الشّيخ الفيض الكاشاني رحمه الله حيث قال:

أقول: وسرّ ذلك أنّ ميزان كلّ شيء هو المعيار الّذي به يعرف قدر ذلك الشيء، فميزان النّاس يوم القيامة ما يوزن به قدر كلّ إنسان وقيمته على حسب عقيدته وخلقه وعمله، لتجزى كلّ نفس بما كسبت، وليس ذلك إلاّ الأنبياء والأوصياء عليهم السّلام، إذ بهم وباتباع شرائعهم واقتفاء آثارهم وترك ذلك، وبالقرب من سيرتهم والبعد عنها يعرف مقدار النّاس وقدر حسناتهم وسيّئاتهم. فميزان كلّ أمّة هو نبيّ تلك الأمّة ووصيّ نبيّها والشّريعة الّتي أتى بها. فمن ثقلت حسناته وكثرت فأولئك هم المفلحون، ومن خفّت وقلّت فأولئك الّذين خسروا أنفسهم بظلمهم عليها من جهة تكذيبهم للأنبياء والأوصياء أوعدم اتّباعهم[٢١].

ويدلّ عليه الخبر الّذي رواه الشّيخ الصّدوق رحمه الله، وقد استند إليه الشّيخ الكاشاني رحمه الله أيضاً.

الثّاني: إنّه العدل. واختارهذا القول الشّيخ المفيد رحمه الله حيث قال:

... والموازين هي: التّعديل بين الأعمال والجزاء عليها، ووضع كلّ جزاء في موضعه، وكلّ ذي حقّ إلى حقّه.

فليس الأمر في معنى ذلك على ما ذهب إليه أهل الحشو: من أنّ في القيامة موازين كموازين الدّنيا، لكلّ ميزان كفّتان توضع الأعمال فيها، إذ الأعمال أعراضٌ، والأعراض لا يصحّ وزنها، وإنّما وصفت بالثّقل والخفّة على وجه المجاز، والمراد بذلك: إنّ ما ثقل منها هو ما كثر واستحقّ عليه عظيم الثّواب، وما خفّت منها ما قلّ قدره، ولم يستحقّ عليه جزيل الثّواب.

والخبر الوارد في أنّ أمير المؤمنين والأئمّة من ذريّته عليهم السّلام هم الموازين، فالمراد أنّهم المعدّلون بين الأعمال فيما يستحقّ عليها، والحاكمون فيها بالواجب والعدل، ويقال: فلانٌ عندي في الميزان فلان ويراد به نظيره، ويقال: كلام فلان عندي أوزان من كلام فلان، والمراد به: أنّ كلامه أعظم وأفضل قدراً.

والّذي ذكره الله في الحساب والخوف منه إنّما هو الموافقة على

الأعمال، لأنّ من وقف على أعماله لم يتخلّص من تبعاتها. ومن عفى الله تعالى عنه في ذلك فاز بالنّجاة، (**فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوازِينُهُ** ـ بكثرة استحقاق الثّواب ـ **فَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ * وَمَنْ خَفَّتْ مَوازِينُهُ** ـ بقلّة أعمال الطّاعات ـ **فَأُولئِكَ الَّذينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ في جَهَنَّمَ خالِدُونَ**)[٢٢].

والقرآن إنّما أنزل بلغة العرب، وحقيقة كلامها ومجازه، ولم ينزل على ألفاظ العامّة، وما سبق إلى قلوبها من الأباطيل.[٢٣]

واختاره جماعةٌ منهم شيخ الطّائفة[٢٤]، والشّيخ الفتّال النّيسابوري[٢٥]، والشّيخ الطّبرسي[٢٦]، والفخرالرّازي[٢٧]، والرّاغب[٢٨]، ويؤيّده الخبرالمتقدّم عن هشام بن الحكم...[٢٩].

(٢١) التّفسير الصّافي ٢ / ١٨١.

(٢٢) سورة المؤمنون، الآية ١٠٢ ـ ١٠٣.

(٢٣) تصحيح الإعتقادات: ١١٤ ـ ١١٥، وقد نقل كلامه في البحار ٧ / ٢٥٢.

(٢٤) التّبيان في تفسير القرآن ٤ / ٣٥٢.

الثّالث: أنّه الميزان المعروف، الّذي له لسانٌ وكفّتان. وعلى هذا

جمهور المسلمين من المحدّثين والمفسّرين[٣٠]. وعليه الشّيخ ابن شهرآشوب رحمه الله، حيث قال:

الميزان هو المعروف، وإذا استعمل في غيره كان مجازاً، وكلام الله لا ينقل عن الحقيقة إلى المجاز من دون دلالة ومانع.[٣١]

وقال مجاهد وأبو مسلم: أنّها عبارةٌ عن العدل والتّسوية الصّحيحة كما يقال: كلام فلان موزون، وأفعاله موزونة.[٣٢]

وعليه الشّيخ البهائي رحمه الله كما سيأتي.[٣٣]

وقال الشّيخ الطّوسي والشّيخ الطّبرسي: رحمهما الله أنّه حسن، مراعاةً للخبر الوارد فيه، وجرياً على ظاهره.[٣٤]

وعليه السّيد محمد باقر الحجّة صاحب المنظومة حيث قال:

وصدّق الميزان فالذّكر نطق *** بوصفه فهو بكفّيه حقّ

وتبعه شارحه وأوضح أدلّته، وتعجّب من الشّيخ المفيد رحمه الله

وغيره لمخالفتهم في ذلك...[٣٥].

وعليه الجلال السّيوطي[٣٦]، والقرطبي[٣٧]، وابن كثير[٣٨]وآخرون[٣٩].

وبناءً على هذا القول يأتي البحث عن كيفيّة وزن الأعمال بالميزان، وذلك لأنّ الأعمال أعراض لا يمكن وضعها في الميزان لأجل الوزن. فما الّذي يوضع في الميزان؟ إختلفوا على أقوال:

---

(٢٥) روضة الواعظين: ٤٩٩.

(٢٦) مجمع البيان في تفسيرالقرآن ٤ / ٢٢٠، قال: وأحسن الأقوال القول الأوّل... وهو: أنّ الوزن عبارةٌ عن العدل في الآخرة وإنّه لا ظلم فيها على أحد.

(٢٧) التفسير الكبير ١٤ / ٢٨ ـ ٢٩.

(٢٨) تفسير الرّاغب: ٢٥.

(٢٩) في الصفحة: ١٣.

(٣٠) قال به: ابن عبّاس والحسن والجبائي. فراجع التبيان ٧ / ٣٩٦ و ١٠ / ٤٠٠.

(٣١) متشابه القرآن: ١٢٤.

(٣٢) أنظر الإقتصاد: ١٣٧، والتّبيان ٤ / ٣٥٢،و مجمع البيان ٤ / ٢٢٠ و ٩ / ٤٥.

(٣٣) في الصفحة: ٢١.

(٣٤) التّبيان في تفسير القرآن ٤ / ٣٥٢، ومجمع البيان في تفسير القرآن ٤ / ٢٢١.

(٣٥) نور الأفهام في علم الكلام ٢ / ٢٥٧.

(٣٦) الدرّ المنثور ٣ / ٧٠، وتفسير الجلالين: ١٩٣.

(٣٧) تفسير القرطبي ١١ / ٢٩٣ ـ ٢٩٤.

(٣٨) تفسير القرآن العظيم: ٢ / ٢١٠.

(٣٩) تفسير السمعاني ٢ / ١٦٦، وتفسير الثعالبي ٣ / ٩ وفتح الباري ١٣ / ٤٥٠، و تفسير العز بن عبدالسّلام ١ / ٤٧٥ والتسهيل لعلوم التنزيل ٣ / ٢٧.

القول الأوّل: أنّ الموزون نفس الأعمال، قال الشيخ البهائي رحمه اللهّ:

الحقّ، أنّ الموزون في النّشأة الأخرى هو نفس الأعمال لا صحائفها. وما يقال من أنّ تجسيم العرض طورٌ خلاف طور العقل، فكلام ظاهريّ عاميّ.

والّذي عليه الخواصّ من أهل التّحقيق: أنّ سنخ الشّيء وحقيقته

أمرٌ مغاير لصورته الّتي يتجلّى بها على المشاعر الظّاهرة، ويلبسها لدى المدارك الباطنة، وأنّه يختلف ظهوره في تلك الصّور بحسب اختلاف المواطن والنّشآت، فيلبس في كلّ موطن لباساً، ويتجلبب في كلّ نشأة بجلباب، كما قالوا:إنّ لون الماء لون إنائه.

وأمّا الأصل الّذي تتوارد هذه الصّور عليه ويعبّرون عنه تارةً بالسّنخ، ومرّةً بالوجه، وأخرى بالرّوح، فلا يعلمه إلاّ علاّم الغيوب، فلا بعد في كون الشّيء في موطن عرضاً وفي أخرى جوهراً...(٤٠).

وجوّز السّيوطي(٤١) والسّيد الحجّة الطّباطبائي(٤٢): أن يكون الموزون نفس الأعمال، قال:... فالسّمع على التّجسيم دلّ. كما أجازا القول بأنّه الصّحائف.

القول الثّاني: أنّ الموزون، الصّحف الّتي أثبتت فيها، وهو قول عبداللهّ بن عمر وجماعة، واختاره القرطبي(٤٣)، وأجازه السّيوطي(٤٤)، للأخبار الدّالة عليه.

القول الثّالث: أنّ الموزون نفس المؤمن والكافر. عن عبيد بن عمير: قال: يؤتى بالرّجل العظيم الجثّة فلا يزن جناح بعوضة.(٤٥)

القول الرّابع: يظهر علامات للحسنات وعلامات للسّيّئات في الكفّتين فيراها النّاس. عن الجبائي.(٤٦)

القول الخامس: يظهر للحسنات صورة حسنة، وللسّيّئات صورة سيّئة. عن ابن عبّاس.(٤٧)

هذا، وأراد ابن كثير الجمع بين الأخبار، فقال: وقد يمكن الجمع بين هذه الآثار بأن يكون ذلك كلّه صحيحاً فتارةً يوزن الأعمال، وتارةً توزن محالّها، وتارةً يوزن فاعلها واللهّ أعلم.(٤٨)

---

(٤٠) كتاب الأربعين: ٧٩، وراجع شرح اصول الكافي للمولى الصالح المازندراني ١١ / ٢٣٩.

(٤١) الدرّ المنثور ٣ / ٧١.

(٤٢) نور الأفهام في علم الكلام ٢ / ٢٥٧.

(٤٣) الجامع لأحكام القرآن ٧ / ١٦٥ ـ ١٦٦، قال: فقد علم أنّ ذلك يرجع إلى وزن ما كتب فيه الأعمال لا نفس الأعمال... وفي صحيح مسلم عن صفوان بن محرز قال: قال رجل لابن عمر: كيف سمعت رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه [وآله]... فقوله: فيعطي صحيفة حسناته دليل على أنّ الأعمال تكتب في الصّحف وتوزن.

(٤٤) تفسير الجلالين: ١٩٣.

(٤٥) مجمع البيان في تفسير القرآن ٤ / ٤٩٥.

(٤٦) نفس المصدر.

(٤٧) مجمع البيان في تفسيرالقرآن ٤ / ٤٩٥.

(٤٨) تفسير القرآن العظيم ٢ / ١٧٦.

الرّابع: التّوقّف، وهو معنى كلام الشّيخ المجلسي رحمه اللّٰه المتقدّم، وظاهر السّيد عبداللّٰه شبّر.(٤٩)

الخامس: ذكره السّيد الطّباطبائي، حيث قال بعد كلام له:

فالأقرب بالنّظر إلى هذا البيان أن يكون المراد بقوله: (**وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ**) أنّ الوزن الّذي يوزن به الأعمال يومئذ إنّما هوالحقّ، فبقدر اشتمال العمل على الحقّ يكون اعتباره وقيمته، والحسنات مشتملة على الحقّ، فلها ثقل، كما أنّ السّيّئات ليست إلاّ باطلة، فلا ثقل لها، فاللّٰه سبحانه يزن الأعمال يومئذ بالحقّ، فما اشتمل عليه العمل من الحقّ فهو وزنه وثقله...(٥٠).

وكأنّه يرجع بالتالي إلى القول الأوّل، ويؤيّده ما صرّح به في تفسير سورة البقرة(٥١).

(٤٩) حقّ اليقين في معرفة أصول الدّين ٢ / ١٥٥.

(٥٠) الميزان في تفسير القرآن ٨ / ٨ ـ ٩.

(٥١) نفس المصدر ١ / ١٧٢.

البحث الثّاني

في تطاير الكتب

إنّ الإعتقاد بتطائر الكتب[٥٢]، وتسليم صحف الأعمال إلى أصحابها يوم القيامة، من الضّروريّات الّتي يجب التّصديق بها، والإذعان لها.

فقد ورد ذلك في الكتاب والسّنة، وكلمات علماء المسلمين ـ على اختلاف طبقاتهم ـ . والعقل حاكم بإمكانه وعدم امتناعه. فلا مجال لأيّ تشكيك فيه فضلاً عن الإنكار.

ولابدّ من ذكر الآيات الكريمة الصّريحة في ذلك، ثّم نقل بعض الرّوايات الشّريفة فنصوص بعض العلماء.

الكتاب

وهذه آيات الكتاب العزيز الواردة في ذلك:

١ ـ قوله تعالى: (**وَكُلَّ إنسان أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ في عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتابًا يَلْقاهُ مَنْشُورًا * اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا**)[٥٣].

٢ ـ قوله تعالى: (**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**)[٥٤].

٣ ـ قوله تعالى: (**فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ * إِنّي ظَنَنْتُ**[٥٥] **أَنّي مُلاق حِسابِيَهْ * فَهُوَ في عيشَة راضِيَة**)[٥٦].

٤ ـ قوله تعالى: (**وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ * وَلَمْ أَدْرِ ما حِسابِيَهْ**)[٥٧].

٥ ـ قوله تعالى: (**وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمينَ مُشْفِقينَ مِمّا فيهِ وَيَقُولُونَ يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إِلاّ أَحْصاها وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا**)[٥٨].

٦ ـ قوله تعالى: (**هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنّا كُنّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ**)[٥٩].

السّنة

---

(٥٢) والمراد نشرها; قال سبحانه: (وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ).

(٥٣) سورة الإسراء، الآية: ١٣ ـ ١٤.

(٥٤) سورة التكوير، الآية: ١٠.

(٥٥) الظّن هنا بمعنى اليقين.

(٥٦) سورة الحاقّة، الآية: ١٩ ـ ٢١.

(٥٧) سورة الحاقّة، الآية: ٢٥.

(٥٨) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٥٩) سورة الجاثية، الآية: ٢٩.

والأخبار في معنى الصّحف والكتب، والتّأكيد عليها كثيرةٌ، ننقل هنا بعضها:

١ ـ قال سيّدنا ومولانا عليّ بن الحسين سيد السّاجدين عليه الصّلاة والسّلام ـ في دعاء له ـ : «اللّهمّ يسّر على الكرام الكاتبين مئونتنا، واملأ لنا من حسناتنا صحائفنا، ولا تخزنا عندهم بسوء أعمالنا»[٦٠].

٢ ـ وقال عليه السّلام أيضاً في دعاء له بعد كلام: «حتّى ينصرف عنّا كتّاب السّيئات بصحيفة خالية من ذكر سيّئاتنا، ويتولى كتّاب الحسنات عنّا مسرورين بما كتبوا من حسناتنا».[٦١]

٣ ـ وعنه عليه السّلام عن أمير المؤمنين عليه أفضل الصّلاة والسّلام في بعض خطبه: «... ثمّ من دون ذلك أهوال القيامة، ويوم الحسرة والنّدامة، يوم ينصب فيه الموازين وتنشر الدّواوين لإحصاء كلّ صغيرة، وإعلان كلّ كبيرة، يقول الله في كتابه (**وَوَجَدُوا ما عَمِلُوا حاضِرًا وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا...**)[٦٢].

أيها النّاس الآن الآن مادام الوثاق مطلقاً، والسّراج منيراً، وباب التوبة مفتوحاً من قبل أن يجفّ القلم و تطوى الصّحف، فلا رزق ينزل، ولا عمل يصعد، المضمار اليوم والسّباق غداً، فإنّكم لا تدرون إلى جنة، أو إلى نار، أستغفروا الله لي ولكم»[٦٣].

٤ ـ وقال سيدنا ومولانا الإمام الباقر محمّد بن عليّ عليهما السّلام في قوله تعالى: (**وَكُلَّ إِنسان أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ فِي عُنُقِهِ**) قال: «خيره وشرّه معه حيث كان، لا يستطيع فراقه حتّى يعطى كتابه يوم القيامة بما عمل»[٦٤].

٥ ـ وقال سيدنا ومولانا الصّادق عليه الصّلاة والسّلام في قوله تعالى: (**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا**)[٦٥]: «يذّكر العبد جميع ما عمل وما كتب عليه حتّى كأنّه فعله تلك السّاعة فلذلك قالوا: (**يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاّ أَحْصاها**)»[٦٦].

٦ ـ وعنه عليه السّلام أنّه قال: «إنّ الله تبارك وتعالى إذا أراد أن يحاسب المؤمن أعطاه كتابه بيمينه وحاسبه فيما بينه وبينه، فيقول: عبدي فعلت كذا وكذا، وعملت كذا وكذا، فيقول: نعم، يا ربّ قد فعلت ذلك.

فيقول: قد غفرتها لك، وأبدلتها حسنات، فيقول النّاس: سبحان الله أما كان لهذا العبد سيئة واحدة؟ وهو قول الله عزّوجلّ: (**فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ * فَسَوْفَ يُحاسَبُ حِسابًا يَسِيراً * وَيَنْقَلِبُ إِلى أَهْلِهِ مَسْرُورًا**).

---

(٦٠) الصّحيفة السّجادية: ٥٠، دعاؤه عليه السّلام عند الصّباح والمساء، والبحار ٩٤ / ٣٠٧ اليوم التّاسع والعشرون.

(٦١) الصّحيفة السّجادية: ٦٣ دعاؤه عليه السّلام بخواتم الخير.

(٦٢) سورة الكهف، الآية: ٤٩.

(٦٣) مجموعة الشّيخ ورّام ٢ / ٨٩ ، وأمالي الطّوسي: ٦٨٥ مجلس يوم الجمعة، الرّابع عشر من شعبان، الرّقم ٩، والبحار ٧٤ / ٣٧٧.

(٦٤) تفسير القمّي ٢ / ١٧، والبحار٧ / ٣١٢، الباب ١٦، الرّقم ١.

(٦٥) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٦٦) تفسير العياشي ٢ / ٢٨٤، الرّقم ٣٣ و ٣٢٨، الرّقم ١٨، والبحار ٧ / ٣١٤ ـ ٣١٥، الباب ١٦، الرّقم ٩.

وإذا أراد بعبد شرّاً حاسبه على رؤوس الناس وبكته، وأعطاه كتابه بشماله وهو قول الله عزّوجلّ: (**وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ وَراءَ ظَهْرِهِ * فَسَوْفَ يَدْعُوا ثُبُورًا * وَيَصْلى سَعيراً * إِنَّهُ كانَ في أَهْلِهِ مَسْرُورًا...**)(٦٧).

وفيه إشارة إلى أن أيدي الكفّار والمنافقين مغلولة في أعناقهم، وأنّ صحائفهم تعطى من وراء أظهرهم بشمالهم، وأيدي المؤمنين بخلاف ذلك.

وإلى ذلك أشير أيضاً في دعاء الوضوء بقوله: «اللّهمّ أعطني كتابي

بيميني والخلد في الجنان بيساري، وحاسبني حساباً يسيراً، وقوله: الّلهمّ لا تعطني كتابي بشمالي ولا تجعلها مغلولةً إلى عنقي وأعوذ بك من مقطعات النّيران»(٦٨).

٧ ـ وعن سيدنا الباقرعن أبيه عليهما السّلام أنّه قال: «إنّ الملك الموكل بالعبد يكتب في صحيفته أعماله، فأملوا في أوّلها خيراً وفي آخرها خيراً، يغفر لكم ما بين ذلك»(٦٩).

٨ ـ عن خالد بن نجيح عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: «إذا كان يوم القيامة، دفع إلى الإنسان كتابه، ثمّ قيل له: إقرأ.

قلت: فيعرف ما فيه؟

فقال: إنّ الله يذكره، فما من لحظة، ولا كلمة، ولا نقل قدم، ولا شيء فعله إلاّ ذكره، كأنّه فعله تلك السّاعة، فلذلك قالوا: (**يا وَيْلَتَنا ما لِهذَا الْكِتابِ لا يُغادِرُ صَغيرَةً وَلا كَبيرَةً إِلاّ أَحْصاها**)».(٧٠)

٩ ـ وقال الشّيخ عليّ بن إبراهيم القمّي رحمه الله في قوله تعالى: (**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**)، قال: «صحف الأعمال»(٧١).

١٠ ـ عن النّبي صلّى الله عليه و آله وسلّم، أنّه قال: «يحشر الناس حفاة عراة.

فقالت أمّ سلمة: كيف بالنّساء؟

فقال: شغل النّاس يا أمّ سلمة.

فقالت: وما شغلهم؟

قال: نشر الصّحف، وفيها مثاقيل الذّر، ومثاقيل الخردل»(٧٢).

وهناك رواياتٌ أخرى(٧٣)، وقد يأتي بعضها في المبحث الآتي إن شاء الله.

---

(٦٧) حقّ اليقين ٢ / ١٧٢ عن كتاب الزّهد للحسين بن سعيد الأهوازي: ٩٢، الرّقم ٢٤٦، والبحار ٧ / ٣٢٤ ـ ٣٢٥، الرّقم ١٧.

(٦٨) أمالي الصّدوق: ٦٤٩ المجلس الثّاني والثّمانون، الرّقم ١١، والبحار ٧٧ / ٣١٩، الرّقم ١٢، والوسائل ١ / ٤٠٢، الرّقم ١.

(٦٩) أمالي المفيد: ٢ المجلس الأوّل يوم السّبت، وأورد عنه السيّد علي بن طاوس في كتاب محاسبة النّفس: ١٥ وفيه: في صحيفة أعماله فاعملوا...، وأورده أيضاً في الفصل الثاني والعشرين من كتاب فلاح السّائل: ٢١٥، وفيه: فاملئوا... والبحار ٥ / ٣٢٨ ـ ٣٢٩ الباب ١٧، الرّقم ٢٥.

(٧٠) تفسير العياشي٢ / ٣٢٨، الرّقم ٣٤، والبحار٧ / ٣١٥ الباب ١٦، الرّقم ١٠.

(٧١) تفسيرالقمّي ٢ / ٤٠٧، والبحار ٧ / ١٠٨ و ٣١٢.

(٧٢) تفسير جوامع الجامع ٤ / ٤٤٩ و ٦١٩.

١ ـ اعتقادات الشّيخ الصّدوق رحمه اللّٰه: قال الشّيخ رضي اللّٰه عنه: إعتقادنا في الميزان والحساب أنّهما حقّ، منه ما يتولاّه اللّٰه عزّوجلّ،

ومنه ما يتولاّه حججه، فحساب الأنبياء والرّسل والأئمّة عليهم السّلام يتولاّه الله عزّوجلّ، ويتولّى كلّ نبيّ حساب أوصيائه، ويتولّى الأوصياء حساب الأمم.

واللّٰه تبارك وتعالى هو الشّهيد على الأنبياء والرّسل، وهم الشّهداء على الأوصياء، والأئمّة شهداء على النّاس... .

وأنّ الله تبارك وتعالى يخاطب عباده من الأوّلين والآخرين بمجمل حساب عملهم مخاطبةً واحدةً، يسمع منها كلّ واحد قضيته دون غيرها، ويظنّ أنّه المخاطب دون غيره، ولا تشغله تعالى مخاطبة عن مخاطبة، ويفرغ من حساب الأوّلين والآخرين في مقدار نصف ساعة من ساعات الدّنيا.

ويخرج اللّٰه تعالى لكلّ إنسان كتاباً يلقاه منشوراً، ينطق عليه بجميع أعماله لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها، فيجعله اللّٰه حسيب نفسه والحاكم عليه، بأن يقال له (**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا...**)[٧٤].

٢ ـ قال شيخ الطّائفة رحمه اللّٰه: ثمّ أخبر تعالى أنّه يخرج للإنسان

المكلّف يوم القيامة كتاباً فيه جميع أفعاله مثبتة ما يستحقّ عليه ثواب أو عقاب... .

وقوله: (**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا**)[٧٥] أي حسبك نفسك اليوم حاكماً عليك في عملك وما تستحقّ ّه من ثواب على الطّاعة ومن عقاب على المعصية، لأنّه أنصفك من جعلك حسيباً على نفسك بعملك...[٧٦].

٣ ـ وقال المحقق الطّوسي رحمه اللّٰه: وسائرالسّمعيات من الميزان والصّراط والحساب وتطائر الكتب ممكنة، دلّ السّمع على ثبوتها، فيجب التّصديق بها[٧٧].

٤ ـ وقال الشّيخ الطّبرسيّ رحمه اللّٰه: لما قدّم سبحانه ذكر الوعيد أتبع ذلك بذكر كيفيته فقال: وكلّ إنسان ألزمناه طائره في عنقه معناه: وألزمنا كلّ إنسان عمله من خير أو شرّ في عنقه. عن ابن عبّاس ومجاهد وقتادة. يريد: جعلناه كالطّوق في عنقه فلا يفارقه. وإنّما قيل للعمل طائراً: على عادة العرب في قولهم: جرى طائره بكذا، ومثله قوله سبحانه: قالوا طائركم معكم... .

---

(٧٣) منها: روى السّيد البحراني عن النّبيّ صلّى اللّٰه عليه وآله وسلّم: الكتب كلّها تحت العرش، فإذا كان يوم القيامة بعث اللّٰه تعالى ريحاً تطيرها بالأيمان والشّمائل أوّل حرفه: (اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا).

(٧٤) الإعتقادات في دين الإمامية: ٧٣ و ٧٥، باب الإعتقاد في الحساب والميزان، والبحار ٧ / ٢٥١، باب الميزان، الرّقم ١٠.

(٧٥) سورة الإسراء، الآية: ١٤.

(٧٦) تفسيرالتّبيان ٦ / ٤٥٥ و ٤٥٧.

(٧٧) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٧٥، المسألة الرّابعة عشرة.

ونخرج له يوم القيامة كتاباً وهو ما كتبه الحفظة عليهم من أعمالهم يلقاه أي: يرى ذلك الكتاب منشوراً أي مفتوحاً معروضاً عليه ليقرأه ويعلم ما فيه... .

إقرأ كتابك، فهنا حذف أي: ويقال له: إقرأ كتابك. قال قتادة: يقرأ يومئذ من لم يكن قارئاً في الدّنيا.

وروى جابر بن خالد بن نجيح عن أبي عبدالله عليه السّلام... .

كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً أي: محاسباً. وإنّما جعله محاسباً لنفسه لأنّه إذا رأى أعماله يوم القيامة كلّها مكتوبة، ورأى جزاء أعماله مكتوباً بالعدل لم ينقص عن ثوابه شيء ولم يزد على عقابه شيء أذعن عند ذلك وخضع وتضرّع واعترف، ولم يتهيأ له حجّة ولا إنكار وظهر لأهل المحشر أنّه لا يظلم...[٧٨].

٥ ـ وقال العلاّمة رحمه اللهّ: أقول: أحوال القيامة من الميزان والصّراط والحساب وتطائر الكتب أمور ممكنة. وقد أخبر اللهّ تعالى بوقوعها، فيجب التّصديق بها[٧٩].

وقال: ويجب الإقراربكلّ ما جاء به النّبي صلّى اللهّ عليه وآله
وسلّم. فمن ذلك الصّراط والميزان وإنطاق الجوارح وتطائر الكتب، لإمكانها، وقد أخبر الصّادق بها فيجب الإعتراف بها[٨٠].

٦ ـ وقال الشّهيد الثّاني رحمه اللهّ: وأمّا عذاب القبر نعوذ باللهّ تعالى منه وما يتبع المعاد ممّا دلّ عليه السّمع أيضاً كالحساب والصّراط والميزان وتطائر الكتب ودوام عقاب الكافرين في النّار، ودوام نعيم المؤمن في الجنّة، فلا ريب أنّه يجب التّصديق بها إجمالاً لاتّفاق الأمّة عليها، وتواتر السّمع المتواتر، فمنكرها يخرج عن الإيمان...[٨١].

٧ ـ وقال الفاضل المقداد السّيوري رحمه اللهّ: لما ثبت نبوّة نبينا صلّى اللهّ عليه وآله وسلّم وعصمته، ثبت أنّه صادق في كلّ ما أخبر بوقوعه سواء كان سابقاً على زمانه... أو في زمانه... أو بعد التّكليف، كأحوال الموت وما بعده، فمن ذلك عذاب القبر والصّراط والميزان والحساب، وإنطاق الجوارح وتطائر الكتب.

ويجب الإقرار بذلك أجمع، والتّصديق به، لأنّ ذلك كلّه أمرٌ ممكن لا إستحالة فيه، وقد أخبر الصّادق بوقوعه فيكون حقّاً[٨٢].

٨ ـ وقال الشّيخ الفيض الكاشاني رحمه اللهّ: والحساب هو: جمع
تفاريق المقادير والأعداد، وتعريف مبلغها، وفي قدرة اللهّ عزّوجلّ يكشف في لحظة واحدة للخلائق حاصل حسناتهم وسيئاتهم وهو أسرع الحاسبين، ويأبى اللهّ إلاّ أن يعرّفهم حقيقة ذلك ليبيّن فضله عند العفو، وعدله عند العقاب، فيخاطب عباده جميعاً من الأوّلين والآخرين بمجمل حساب أعمالهم مخاطبةً واحدةً يسمع منها كلّ واحد قضيّته دون

(٧٨) مجمع البيان في تفسير القرآن ٦ / ٥٢١ و ٥٢٢.

(٧٩) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٧٥.

(٨٠) النّافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢١، الفصل السّابع: في المعاد.

(٨١) حقائق الإيمان: ١٦٤.

(٨٢) النّافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٢، الفصل السّابع: في المعاد.

غيره، ويظنّ أنّه المخاطب دون غيره، لا يشغله عزّوجلّ مخاطبة عن مخاطبة، ويفرغ من حسابهم جميعاً في مقدار ساعة من ساعات الدّنيا.

ويخرج لكلّ إنسان كتاباً يلقاه منشوراً، ينطق عليه بجميع أعماله، لا يغادر صغيرةً ولا كبيرةً إلاّ أحصاها. فيجعله الله محاسب نفسه والحاكم عليها، بأن يقال له: (**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا...**).

فتطائر الكتب، وتشخّص الأبصار إليها: أتقع في اليمين أو في الشّمال؟

(**فَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمينِهِ فَيَقُولُ هاؤُمُ اقْرَؤُا كِتابِيَهْ**)[٨٣] (**وَأَمّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِشِمالِهِ فَيَقُولُ يا لَيْتَني لَمْ أُوتَ كِتابِيَهْ...**)[٨٤].

٩ ـ وذكرالشّيخ العلاّمة المجلسي رحمه الله: بعض ما ورد في الحساب وكيفيته، وقال ما تعريبه ملخّصاً: يجب الإعتقاد الإجمالي بالحساب والسّؤال والحكم في مظالم العباد لورود ذلك في الآيات والأخبار الكثيرة. ثمّ نقل عبارة الشّيخ الصّدوق المذكورة آنفاً...[٨٥].

ثمّ تعرّض لقوله تعالى: (**وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ**) فنقل تفسيرها عن الشّيخ عليّ بن إبراهيم القمي رحمه الله، والرّواية الواردة في تفسيرالعياشي[٨٦] عن الإمام الصّادق عليه الصّلاة والسّلام...[٨٧].

١٠ ـ وقال الشّيخ صفيّ الدّين الطّريحي رحمه الله: ويجب الإقرار بكلّ ما جاء به النّبي صلّى الله عليه وآله ممّا تواتر عنه، وعلم من دينه بالضّرورة، فمن ذلك عذاب القبر والصّراط والميزان والحساب وإنطاق الجوارح وتطائر الكتب وأحوال يوم القيامة، لإمكانها، وقد أخبر الصّادق بها صلوات الله عليه، فيجب الإعتراف بها[٨٨].

١١ ـ وقال السّيد عبد الله شبّر: (**وَكُلَّ إِنسان أَلْزَمْناهُ طائِرَهُ**) عمله من خير وشرّ (**في عُنُقِهِ**) لزوم الطّوق في عنقه (**وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ**

كِتابًا) وهو صحيفة عمله (**يَلْقاهُ مَنْشُورًا**)، ويقال له: (**اقْرَأْ كِتابَكَ كَفى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسيبًا**) محاسباً، ولقد أنصفك من جعلك حسيب نفسك.[٨٩]

هذا، ويجب التّصديق بالملائكة الموكلين الكرام الكاتبين، لورود ذلك في نصوص الكتاب الكريم والرّوايات المتواترة، ولأنّه من الضّروريات الإعتقادية من الدّين الإسلامي.

---

(٨٣) سورة الحاقة، الآية: ١٩ و ٢٥.

(٨٤) المحجّة البيضاء ١ / ٢٥١ ـ ٢٥٢.

(٨٥) البحار٧ / ٢٥٠ـ٢٥١.

(٨٦) المتقدّمين في صفحة ١٨ و ١٩.

(٨٧) البحار ٧ / ٣١٢، الرّقم ٢.

(٨٨) مطارح النظر في شرح الباب الحادي عشر: ٢٨٧.

(٨٩) تفسير القرآن الكريم: ٢٨٠.

وقد بحث المحدّثون عن كيفية الحساب، ومن يتولاّه، وعن أيّ شيء يسئل النّاس إلى غير ذلك، بحسب ما وصل إليهم من سادتهم المعصومين عليهم الصّلاة والسّلام. فراجع.

البحث الثّالث

في إنطاقِ الجوارح

وممّا يجب الإعتقادبه من أمور الآخرة: إنطاق اللهّ عزّوجلّ أعضاء المكلّفين وجوارحهم لتشهد عليهم بأعمالهم وحركاتهم في الحياة الدّنيا.

وسيأتي أنّ هناك شهداء آخرين يشهدون على النّاس بالإضافة إلى جوارحهم، وصحف أعمالهم الحاكية جميع ما كانوا يعملون... .

ويدلّ على إنطاق الجوارح آيات من الكتاب الكريم، وروايات كثيرة عن النّبيّ صلّى الله عليه وآله، وأئمّة عترته المعصومين عليهم الصّلاة والسّلام.

هذا، مضافاً إلى نصوص العلماء، ورجال هذا الشأن... .

الكتاب

ومن الآيات الكريمة الدّالة على هذا المعنى:

١ ـ قوله تعالى: (**وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْداءُ اللهِ إِلَى النّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ * حَتّى إِذا ما جاؤُها شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ * وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللّهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْء وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللّهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً مِمّا تَعْمَلُونَ**).[٩٠]

٢ ـ قوله تعالى: (**يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْديهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَعْمَلُونَ * يَوْمَئِذ يُوَفِّيهِمُ اللّهُ دينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبينُ**)[٩١].

٣ ـ قوله تعالى: (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)[٩٢].

٤ ـ قوله تعالى: (**إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤادَ كُلُّ أُولئِكَ كانَ عَنْهُ مَسْؤُلاً**)[٩٣].

السّنة

ومن الرّوايات الواردة في هذا الموضوع:

---

(٩٠) سورة فصّلت، الآية: ١٩ ـ ٢١.

(٩١) سورة النّور، الآية: ٢٤ ـ ٢٥.

(٩٢) سورة يس، الآية: ٦٥.

(٩٣) سورة الإسراء، الآية: ٣٦.

١ ـ قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «عباد الله، إحذروا يوماً تفحص
فيه الأعمال، ويكثر فيه الزّلزال، وتشيب فيه الأطفال.

إعلموا عباد الله، أنّ عليكم رصداً من أنفسكم، وعيوناً من جوارحكم، وحفّاظ صدق يحفظون أعمالكم، وعدد أنفاسكم، لا تستركم منهم ظلمة ليل داج، ولا يكنّكم منهم باب ذو رتاج، وإنّ غداً من اليوم قريب[٩٤].

٢ ـ وقال عليه السّلام: «إنّ الله سبحانه وتعالى لا يخفى عليه ما العباد مقترفون في ليلهم ونهارهم، لطف به خبراً، وأحاط به علماً، أعضاؤكم شهود، وجوارحكم جنود، وضمائركم عيونه، وخلواتكم عيانه»[٩٥].

٣ ـ عن الإمام الصّادق عن جدّه عن أمير المؤمنين عليهم السّلام في خطبة يصف هول يوم القيامة: «ختم على الأفواه فلا تكلّم، وقد تكلّمت الأيدي، وشهدت الأرجل، ونطقت الجلود بما عملوا، فلا يكتمون الله حديثاً».[٩٦]

٤ ـ وعن الإمام الباقر عليه السّلام في حديث طويل: «وليست
تشهد الجوارح على مؤمن، إنّما تشهد على من حقّت عليه كلمة العذاب. فأمّا المؤمن فيعطى كتابه بيمينه...»[٩٧].

٥ ـ وقال الإمام الصّادق عليه السّلام فيما رواه عنه معاوية بن وهب: «إذا تاب العبد توبةً نصوحاً[٩٨] أحبّه الله فستر عليه في الدّنيا والآخرة فقلت: وكيف يستر عليه؟

قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذّنوب، ويوحي إلى جوارحه: أكتمي عليه ذنوبه، ويوحي إلى بقاع الأرض: أكتمي ما كان يعمل عليك من الذّنوب، فيلقى الله حين يلقاه، وليس شيءٌ يشهد عليه بشيء من الذّنوب».[٩٩]

٦ ـ وروى القمّي رحمه الله في تفسير الآية: (**الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلى أَفْواهِهِمْ وَتُكَلِّمُنا أَيْديهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِما كانُوا يَكْسِبُونَ**)[١٠٠].

إذا جمع الله الخلق يوم القيامة، دفع إلى كلّ إنسان كتابه فينظرون
فيه، فينكرون أنّهم عملوا من ذلك شيئاً، فيشهد عليهم الملائكة فيقولون: يا ربّ ملائكتك يشهدون لك، ثمّ يحلفون أنّهم لم يعملوا من ذلك شيئاً، وهو قوله: يوم يبعثهم الله جميعاً، فيحلفون له كما يحلفون لكم. فإذا فعلوا ذلك ختم على ألسنتهم وينطق جوارحهم بما كانوا يكسبون[١٠١].

---

(٩٤) نهج البلاغة ٢ / ٣١٦ في خطبة يحثّ على التّقوى، والبحار ٧٤ / ٤٣١.

(٩٥) نفس المصدر ٢ / ٤٣٢ من كلام له عليه السّلام في تنزّهه عن الغدر وإن قدر عليه، والبحار ٧٠ / ٣٦٤، الرّقم ٩٦. وورد فيه: أعضاؤكم شهوده وجوارحكم جنوده.

(٩٦) البحار ٧ / ٣١٣، الرّقم ٦ عن تفسير العياشي ١ / ٢٤٢، الرّقم ١٣٣.

(٩٧) الكافي ٢ / ٣٢، والبحار ٧ / ٣١٨، الرّقم ١٤ عنه.

(٩٨) سيأتي معنى التّوبة النّصوح في المبحث الخامس إن شاء الله.

(٩٩) الكافي ٢ / ٤٣٠ ـ ٤٣١، الرّقم ١، ووسائل الشيعة ١٦ / ٧١، الرّقم ١، والبحار ٧ / ٣١٧ ـ ٣١٨، الرّقم ١٢، نقلاً عن الكافي وفي شرح الكافي للمولى الصالح المازندراني ١٠ / ١٦٨ قال ره: المراد بكتمان الجوارح وبقاع الأرض ذنوبه إمّا نسيانهما كما في الملكين، أو عدم الشّهادة بها، والأوّل أظهر... .

(١٠٠) سورة يس، الآية: ٦٥.

(١٠١) تفسير القمّي ٢ / ٢١٦، والبحار ٧ / ٣١٢، الرّقم ٣.

قال الشّيخ الصّدوق رحمه اللهّ: ويختم الله تبارك وتعالى على أفواههم وتشهد أيديهم و أرجلهم وجميع جوارحهم بما كانوا يكتمون، (**وَقالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنا قالُوا أَنْطَقَنَا اللهُ الَّذي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْء وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّة وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ * وَما كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلكِنْ ظَنَنْتُمْ أَنَّ اللهَ لا يَعْلَمُ كَثيراً مِمّا تَعْمَلُونَ**)[١٠٢].

وقال الشّيخ المجلسي رحمه اللهّ: بعد أن ذكر الأقوال في معنى شهادة الجوارح ـ كما سيأتي ـ والأحوط الأولى أن نؤمن بذلك

إجمالاً[١٠٣]. ومثله قال السّيد عبداللهّ شبّر[١٠٤].

وقد نصّ على وجوب الإقرار بذلك كلّ من:

العلاّمة والفاضل المقداد السّيوري والشّيخ الطّريحي شارح الباب الحاديعشر رحمهم اللهّ. وقد تقدّمت كلماتهم في المبحث المتقدّم[١٠٥].

كيفية شهادة الجوارح

ذكروا في كيفية إنطاق اللهّ تعالى الجوارح للشّهادة بأعمال صاحبها يوم القيامة أقوالاً وهي:

أوّلاً: إنّ اللهّ تعالى يبني الجوارح هناك على بنية يمكنها النّطق من جهتها، فتكون هي بنفسها ناطقة، كما جعل سبحانه وتعالى اللّسان في دار الدّنيا كذلك.

الثّاني: إنّ اللهّ تعالى يوجد فيها كلاماً يتضمن الشهادة بما قامت به من أعمال، فيكون المتكلّم في الواقع والحقيقة هواللهّ تعالى دونها، ولكن أضيفت الشّهادة إليها مجازاً.

الثّالث: إنّ اللهّ تعالى يجعل في الجوارح علامات وحالات تقوم

مقام النّطق بالشّهادة، وتدلّ على الفرق بين الأعمال الصّالحة والأعمال السّيئة. فسمّي ذلك شهادة مجازاً.

هذه هي الأقوال المشهورة الّتي ذكرها المفسّرون والمحدّثون في كيفية شهادة الجوارح[١٠٦].

وبهذه الأقوال وشبهها فسّروا شهادة السّماء والأرض ونحو ذلك... .

سائر الشّهود

(١٠٢) الإعتقادات في دين الإمامية: ٧٥ باب الإعتقاد في الحساب والميزان والآية: سورة فصلت: ٢١ ـ ٢٢.

(١٠٣) بحار الأنوار ٧ / ٢٥٣.

(١٠٤) تفسير القرآن الكريم: ١٧٠.

(١٠٥) الصفحة: ٣٦ و ٣٧ و ٣٩.

(١٠٦) أنظر: التبيان ٩ / ١١٧ ـ ١١٩ ومجمع البيان ٩ / ١٥ ـ ١٧، والبحار ٧ / ٣١٠.

وهناك في يوم القيامة شهود آخرون يشهدون للنّاس أو عليهم بأعمالهم، جاء ذلك في الكتاب والسّنة:

فمنهم: الرّسول صلّى الله عليه و آله(١٠٧) ومنهم الأئمّة المعصومون عليهم الصّلاة والسّلام(١٠٨)

ومنهم: القرآن الكريم(١٠٩)

ومنهم: الملائكة(١١٠)

ومنهم: العباد المؤمنون من كلّ أمة(١١١)

---

(١٠٧) قال الطبرسي رحمه الله في قوله سبحانه: فكيف: أي فكيف حال الأمم وكيف يصنعون إذا جئنا من كلّ أمّة من الأمم بشهيد وجئنا بك يا محمّد على هؤلاء يعني قومه شهيداً ومعنى الآية أنّ الله تعالى يستشهد يوم القيامة كلّ نبيّ على أمّته فيشهد لهم وعليهم ويستشهد نبيّنا على أمّته؛ وقال الصّادق عليه السّلام: لكلّ زمان وأمّة إمام، تبعث كلّ أمّة مع إمامها. بحار الأنوار ٧ / ٣٠٧ ـ ٣٠٨ وكذا في الصفحة ٣١٣، الرّقم ٥، وفي رواية أمير المؤمنين عليه السّلام: والشهداء هم الرّسُل عليهم السّلام.

(١٠٨) في رواية أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السّلام في قول الله تبارك وتعالى (وَكَذلِكَ جَعَلْناكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النّاسِ) قال: نحن الشهداء على النّاس بما عندهم من الحلال والحرام وما ضيعوا منه. بصائر الدرجات: ١٠٢، الرّقم ١، وكذا عن الثمالي قال: قال أبو عبدالله عليه السّلام: نحن الشهداء على شيعتنا، وشيعتنا شهداء على الناس وبشهادة شيعتنا يجزون ويعاقبون. بحار الأنوار ٧ / ٣٢٥، الرّقم ١٩ عن كتاب فضائل الشيعة: ١٣، الحديث السّادس عشر.

(١٠٩) عن أبي جعفر عليه السّلام: يا سعد تعلّموا القرآن فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف... فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟ فيقول: يا ربّ منهم من صانني وحافظ عليّ ولم يضيع شيئاً ومنهم من ضيعني واستخف بحقّي وكذب بي وأنا حجتك على جميع خلقك، فيقول الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي وارتفاع مكاني لأُثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب ولأُعاقبنّ عليك اليوم أليم العقاب... الكافي ٢ / ٥٩٦ ـ ٥٩٧، حديث ١.

(١١٠) إذا جمع الله الخلق يوم القيامة دفع كلّ انسان كتابه فينظرون فيه أعمالهم فينكرونها فيقولون ما عملنا منها شيئاً فتشهد عليهم الملائكة الذين كتبوا عليهم أعمالهم، فقال الصّادق عليهم السّلام: فيقولون لله: يا ربّ هؤلاء ملائكتك يشهدون لك، ثمّ يحلفون بالله ما فعلوا من ذلك شيئاً وهو قول الله: (يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللهُ جَميعًا فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَما يَحْلِفُونَ لَكُمْ) وهم الذين غصبوا أمير المؤمنين عليه السّلام. فعند ذلك يختم الله على ألسنتهم... تفسير القمي ٢ / ٢٦٤.

(١١١ ـ ٣) في شهادة اليوم في يوم القيامة: عن أبي عبدالله عليه السّلام قال: ما من يوم يأتي على ابن آدم إلاّ قال ذلك اليوم: يابن آدم أنا يوم جديد وأنا عليك شهيد فافعل بي خيراً واعمل فيّ خيراً أشهد لك يوم القيامة، فإنّك لن تراني بعدها أبداً.

وفي شهادة الليل يوم القيامة: عن أبي عبدالله عن أبيه عليهما السّلام قال: الليل إذا أقبل نادى مناد بصوت يسمعه الخلائق إلاّ الثقلين: يابن آدم، إنّي على ما في شهيد فخذ منّي، فإنّي لو طلعت الشّمس لم تزدد في حسنة ولم تستعتب في من سيئة، وكذلك يقول النّهار إذا أدبر اللّيل. بحار الأنوار ٧ / ٣٢٥، الرّقم ٢٠ و ٢١.

وأيضاً في حديث طويل قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم:... والبقاع التي تشتمل عليه شهود ربّه له أو عليه، واللّيالي والأيّام والشّهور شهوده عليه أوله، وسائر عباد الله المؤمنين شهوده عليه أوله، وحفظته الكاتبون أعماله شهود له أو عليه، فكم يكون يوم القيامة من سعيد بشهادتها له، وكم يكونوا يوم القيامة من شقي بشهادتها عليه... فاعملوا ليوم القيامة وأعدوا الزّاد ليوم الجمع ـ شهر الله الأعظم ـ شهدت له هذه الشهور يوم القيامة... وينادى مناد: يا رجب وشعبان ويا شهر رمضان، كيف عمل هذا العبد فيكم؟ وكيف كانت طاعته الله عزّوجلّ؟ فيقول رجب وشعبان وشهر رمضان: يا ربّنا ما تزوّد منّا إلاّ استعانة على طاعتك، واستمداداً لمواد فضلك، ولقد تعرض بجهده لرضاك، وطلب بطاقته محبتك... بحار الأنوار ٧ / ٣١٥ ـ ٣١٦، الرّقم ١١.

ومنهم: البقاع(٢)

ومنهم: الّليالى والأيام...(٣).

إلى غير ذلك... فإنّ للّه تعالى على كلّ عبد من عباده رقباء من

خلقه، يحفظون أعماله، ويحصون أفعاله... فهو تعالى يستشهد بهم على عباده في أعمالهم، ثمّ يحاسبهم ويجازيهم بعد إتمام الحجّة عليهم، لئلاّ يكون للنّاس على الله حجّة... .

البحث الرّابع

في الشفاعة

الشّفاعة حقّ، وهي ثابتة بالإجماع... ودلّ عليها سنداً للإجماع: الكتاب، والسنّة المتواترة.

وعلى هذا، فلا مجال لإنكارها، وخاصّة شفاعة النّبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم، فإنّ ذلك موضع وفاق بين جميع المسلمين.

ونحن نذكر أوّلاً الآيات الواردة في القرآن الكريم في موضوع الشّفاعة، ثمّ بعض الرّوايات عن النّبي وآله عليهم الصّلاة والسّلام، ثُم كلمات لبعض الأكابر، ونأتي بعد ذلك على معنى الشّفاعة، والخلاف فيها، وسنبيّن بالأدلّة عدم انحصارها في رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم، والله الموفق.

الكتاب

وأمّا الآيات الكريمة، فقد جاءت على نوعين:

النّوع الأوّل: آيات تثبت الشّفاعة وتؤكّد وقوعها.

والنّوع الثّاني: آيات تنفيها، وتعلن عدم وجود الشّفاعة لأحد في أحد يوم القيامة، بل الله تعالى يجازى كلاً بحسب أعماله ومعتقداته.

آيات من النّوع الأوّل

فمن الآيات الدّالّة على الشّفاعة يوم القيامة:

١ ـ قوله تعالى: (**عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحْمُودًا**)[١١٢].

فقد أجمع المفسّرون على أنّ المقام المحمود هو: مقام الشّفاعة، وهو المقام الّذى يشفع صلّى الله عليه وآله فيه النّاس، فيشفّع فيهم[١١٣].

٢ ـ قوله تعالى: (**وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**)[١١٤].

---

(١١٢) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(١١٣) تفسير القمي ٢ / ٢٥، ومجمع البيان ٦ / ٢٨٤، وأمالي الصدوق: ٦٦ أنا الشفيع لشيعتك... و ٣٧٠، والإحتجاج ١ / ٣٦١، والبحار ١٦ / ٣٠٥.

(١١٤) سورة الأنبياء، الآية: ٢٦ ـ ٢٨.

أي: ولا يشفعون إلاّ لمن ارتضى اللهّ في دينه، كذا قال الشّيخ الطّبرسي رحمه اللهّ[١١٥]، وكأنّه مأخوذ من رواية عن الرّضا عليه السّلام، سيأتي نصّها.

٣ ـ قوله تعالى: (**مَنْ ذَا الَّذي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إلاّ بِإِذْنِهِ**)[١١٦].

والمعنى: أنّ أحداً ممّن له شفاعة لا يشفع إلاّ بعد أن يأذن اللهّ له في ذلك ويأمره به، فأمّا أن يبتدئ أحدٌ بالشّفاعة من غير إذن كما يكون فيما بيننا، فليس ذلك لأحد[١١٧].

وذلك: أنّ المشركين كانوا يزعمون أنّ الأصنام تشفع لهم، فأخبر اللهّ سبحانه أنّ أحداً ممّن له الشّفاعة لا يشفع إلاّ بعد أن يأذن اللهّ له في ذلك ويأمره به[١١٨].

٤ ـ قوله تعالى: (**لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا**)[١١٩].

أي: إلاّ من استظهر بالإيمان والعمل الصّالح، أو: بكلمة الشّهادة، أو: إلاّ من وعده أن يشفع كالأنبياء والمؤمنين[١٢٠].

٥ ـ قوله تعالى: (**يَوْمَئِذ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**)[١٢١].

٦ ـ قوله تعالى: (**وَلا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ عِنْدَهُ إلاّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتّى إذا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قالُوا ما ذا قالَ رَبُّكُمْ قالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبيرُ**)[١٢٢].

وقد جاءت الرّوايات مفسّرةً الآية بأنّ اللهّ تعالى يأذن لأنبيائه ورسله وأوليائه وللمؤمنين بالشّفاعة يوم القيامة. وسيأتي نصوصها.

آيات من النّوع الثّاني

وفي القرآن الكريم آيات نافية للشفاعة، منها:

١ ـ قوله تعالى: (**وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ**)[١٢٣].

٢ ـ قوله تعالى: (**فَما لَنا مِنْ شافِعينَ * وَلا صَديق حَميم**)[١٢٤].

---

(١١٥) مجمع البيان في تفسير القرآن ٧ / ٨١ ذيل الآية الشّريفة.

(١١٦) سورة البقرة، الآية: ٢٥٥.

(١١٧) البحار ٨ / ٣١.

(١١٨) التّبيان في تفسير القرآن ٥ / ٣٣٦، ومجمع البيان في تفسير القرآن ٢ / ١٥٩.

(١١٩) سورة مريم، الآية: ٨٧ .

(١٢٠) تفسير الشبّر: ٣٠٥.

(١٢١) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(١٢٢) سورة سبأ، الآية: ٢٣.

(١٢٣) سورة البقرة، الآية: ٤٨ ومثلها غيرها في سورة البقرة: الآية: ١٢٣ وأخرى في سورة الدّخان، الآية: ٤١، قال اللهّ تبارك وتعالى: (يَوْمَ لا يُغْني مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئًا وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ).

٣ ـ قوله تعالى: (**فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشّافِعينَ**)[١٢٥].

٤ ـ قوله تعالى: (**ما لِلظّالِمينَ مِنْ حَميم وَلا شَفيع يُطاعُ**)[١٢٦].

٥ ـ قوله تعالى: (**وَما لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصار**)[١٢٧].

وسيأتي الكلام على هذه الآيات.

٦ ـ قوله تعالي: (**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا أَنْفِقُوا مِمّا رَزَقْناكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ وَالْكافِرُونَ هُمُ الظّالِمُونَ**)[١٢٨].

وهذه الآية وإن كان لفظها عامّاً، إلاّ أنّ المراد به خصوص غير المؤمنين مطلقاً، إذ لا خلاف عندنا في أنّ المؤمنين قد يشفع بعضهم لبعض ويشفع لهم أنبياؤهم، كما دلّ على ذلك آيات النّوع الأوّل، فالآية متأوّلة.

السّنة

وقد دلّت على الشّفاعة نصوص الرّوايات الصّريحة المتكثّرة عن النّبي صلّى الله عليه وآله، والأئمّة الطّاهرين عليهم الصّلاة والسّلام، وإليك بعض تلك النّصوص:

١ ـ قال رسول اللّه صلّى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»[١٢٩].

٢ ـ وعن مولانا الصّادق عليه السّلام عنه صلّى اللّه عليه وآله وسلّم: «إذا قمت المقام المحمود تشفّعت في أصحاب الكبائر من أمتي، فيشفّعني الله فيهم. والله لا تشفّعت فيمن آذى ذريتي»[١٣٠].

٣ ـ وعن أنس بن مالك عنه صلّى اللّه عليه و آله وسلّم: «لكلّ نبيّ وعدة قد دعا بها، وقد سأل سؤلاً. وقد خبأت دعوتي لشفاعتي لأمّتي يوم القيامة»[١٣١].

٤ ـ وعن ابن عبّاس قال: قال رسول الله صلّى اللّه عليه وآله: «أعطيت خمساً لم يعطها أحدٌ قبلي: جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً، ونصرت بالرّعب، وأحلّ لي المغنم، وأعطيت جوامع الكلم، وأعطيت الشّفاعة»[١٣٢].

---

(١٢٤) سورة الشّعراء، الآية: ١٠٠ ـ ١٠١.

(١٢٥) سورة المدّثّر، الآية: ٤٨.

(١٢٦) سورة غافر، الآية: ١٨.

(١٢٧) سورة البقرة، الآية: ٢٧٠.

(١٢٨) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(١٢٩) الإعتقادات في دين الإمامية: ٦٦ ورواه مسنداً في أماليه: ٥٦، المجلس الثّاني، الرّقم ٤ وفي معناه في عيون أخبار الرّضا عليه السّلام ٢ / ١٢٥، والبحار ٨ / ٣٤، الرّقم ٤.

(١٣٠) أمالي الصّدوق: ٣٧، المجلس التّاسع والأربعون، الرّقم ٣، والبحار ٨ / ٣٧، الرّقم ١٢ عنه.

(١٣١) الخصال للشّيخ الصّدوق: ٢٩، الرّقم ١٠٣، والبحار ٨ / ٣٤، الرّقم ١، وقد ورد فيه: أخبأت بدل خبأت. والسّؤل بالضّم: ما يسأل، وخبأ الشيء: ستره وأخفاه. وفي معناه عن أمالي الشّيخ: ٥٧، ذيل الرّقم ٥٠ عن أبي ذرّ وسلمان رضي اللّه عنهما عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم.

(١٣٢) الخصال: ٢٦٦ باب الخمسة، الرّقم ٥٦، ومن لا يحضره الفقيه ١ / ٢٤٠ ـ ٢٤١، الرّقم ٧٢٤، ووسائل الشيعة ٣ / ٣٥١، الرّقم ٤، والبحار ٨ / ٣٨، الرّقم ١٧.

٥ ـ وقال أمير المؤمنين عليه السّلام في خطبة له ذكر فيها فضل القرآن: «واعلموا أنّه شافع مشفّع، وقائل مصدّق، وأنّه من شفع له القرآن

يوم القيامة شفّع فيه، ومن محل به القرآن يوم القيامة صدق عليه...»(١٣٣).

٦ ـ وقال عليه السّلام: «لنا شفاعة ولأهل مودّتنا شفاعة»(١٣٤).

٧ ـ وعنه عليه السّلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم: أربعة أنا لهم شفيع يوم القيامة: المكرم لذرّيتي من بعدي، والقاضي لهم حوائجهم، والسّاعي لهم في أمورهم عند اضطرارهم إليه، والمحبّ لهم بقلبه ولسانه»(١٣٥).

٨ ـ وعن الإمام الباقرعليه السّلام عن أبيه عن جدّه عليهم السّلام، قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه و آله وسلّم: من أراد التّوسّل إليّ، وأن يكون له عندى يد أشفع له بها يوم القيامة، فليصل أهل بيتي ويدخل السّرور عليهم»(١٣٦).

٩ ـ وعن أمير المؤمنين عليه السّلام أنّه قال لأهل الشورى فيما حاججهم به: «فهل فيكم أحدٌ قال له رسول الله صلّى الله عليه وآله: إنّ من شيعتك رجلاً يدخل في شفاعته الجنّة مثل ربيعة ومضر، غيري؟

قالوا: لا...»(١٣٧).

١٠ ـ وقال الإمام الصّادق عليه السّلام: «من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا: المعراج، والمساءلة في القبر، والشّفاعة»(١٣٨).

١١ ـ وعنه عليه السّلام أنّه سئل: عن المؤمن: هل له شفاعة؟ «قال: نعم.

فقال له رجل من القوم: هل يحتاج المؤمن إلى شفاعة محمّد صلّى الله عليه وآله يومئذ؟

قال: نعم، إنّ للمؤمنين خطايا وذنوباً، وما من أحد إلاّ ويحتاج إلى شفاعة محمّد صلّى الله عليه وآله يومئذ...»(١٣٩).

١٢ ـ عن سماعة قال: كنت قاعداً مع أبي الحسن الأوّل عليه السّلام والنّاس في الطّواف في جوف اللّيل، فقال: يا سماعة إلينا إياب هذا الخلق وعلينا حسابهم. فما كان لهم من ذنب بينهم وبين الله عزّوجلّ حتمنا

على الله في تركه لنا فأجابنا إلى ذلك. وما كان بينهم وبين النّاس إستوهبناه منهم وأجابوا إلى ذلك وعوّضهم عزّوجلّ»(١٤٠).

---

(١٣٣) نهج البلاغه ٢ / ٣٥٤ من خطبة له عليه السّلام في النّهي عن البدعة، الرّقم ١٧٤.

(١٣٤) الخصال: ٥٨٨، حديث أربعمائه، والبحار ٨ / ١٩، الرّقم ٩ عنه.

(١٣٥) عيون أخبارالرّضا عليه السّلام ١ / ٢٣٠، الباب ٢٦، الرّقم ٢، والبحار ٩٣ / ٢٢٠، الرّقم ١٠ عنه.

(١٣٦) أمالي الصّدوق: ٤٦١ ـ ٤٦٢ المجلس السّتون، الرّقم ٥، والبحار ٢٦ / ٢٢٧، الرّقم ١ عنه.

(١٣٧) أمالي الطّوسي: ٥٥١، المجلس العشرون، والبحار٣١ / ٣٨٠، ذيل الرّقم ٢٤ نقله عن إرشاد القلوب ٢ / ٥١.

(١٣٨) أمالي الصّدوق: ٣٧٠، المجلس التّاسع والأربعون، الرّقم ٥، والبحار ٦ / ٢٢٣، الرّقم ٢٣ و ٨ / ٣٧، الرّقم ١٣ و ١٨ / ٣٤٠، الرّقم ٤٤ عنه.

(١٣٩) بحار الأنوار ٨ / ٤٨، الرّقم: ٥١ عن تفسير العياشي ٢ / ٣١٤، الرّقم ١٥٠، باختلاف يسير جدّاً.

نكتفي بهذا المقدار من أحاديث الشّفاعة و هي كثيرةٌ جدّاً[١٤١].

نصوص بعض الكلمات في الشّفاعة

وقد صرّح كبار العلماء، ورجال الحديث والكلام بثبوت الشّفاعة وأنّها حقّ وأنّها واقعة يوم القيامة... ولا ريب ـ أنّهم فيما ذهبوا إليه وقالوا به ـ متّبعون للكتاب والسّنة الثّابتة و ما وصل إليهم من عقائد أئمّة أهل البيت عليهم السّلام... وإليك بعض تلك النّصوص:

١ ـ قال الشّيخ الصّدوق رحمه اللهّ: إعتقادنا في الشّفاعة أنّها لمن ارتضى دينه من أهل الكبائر والصّغائر، فأمّا التّائبون من الذّنوب فغير محتاجين إلى الشّفاعة.

قال النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»[١٤٢].

وقال صلّى اللهّ عليه وآله: «لا شفيع أنجح من التّوبة، والشّفاعة للأنبياء، والأوصياء، والمؤمنين، والملائكة، وفي المؤمنين من يشفع مثل ربيعة ومضرّ، وأقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً.

والشّفاعة لا تكون لأهل الشّك والشّرك، ولا لأهل الكفر والجحود، بل تكون للمؤمنين من أهل التّوحيد»[١٤٣].

٢ ـ وقال الشّيخ المفيد رحمه اللهّ: أقول: إنّ رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه وآله يشفع يوم القيامةَ في مذنبي أمّته من الشّيعة خاصّة فيشفّعه اللهّ عزّوجلّ، ويشفع أمير المؤمنين عليه السّلام في عصاة شيعته فيشفّعه اللهّ عزّوجلّ، وتشفع الأئمّة عليهم السّلام في مثل ما ذكرناه من شيعتهم فيشفّعهم، ويشفع المؤمن البرّ لصديقه المؤمن المذنب فتنفعه شفاعته ويشفّعه اللهّ.

وعلى هذا القول إجماع الإمامية إلاّ من شذّ منهم. وقد نطق به القرآن وتظاهرت به الأخبار. قال اللهّ تعالى في الكفّار عند إخباره عن حسراتهم على الفائت لهم ممّا حصل لأهل الإيمان: (**فَما لَنا مِنْ شافِعِينَ * وَلا صَدِيق حَمِيم**).

وقال رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه وآله: «إنّي أشفع يوم القيامة فأشفّع

فيشفع علي عليه السّلام فيشفّع، وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة يشفع في أربعين من إخوانه»[١٤٤].

٣ ـ وقال شيخ الطّائفة رحمه اللهّ في تفسير الآية ٢٥٤ سورة البقرة:

وقوله: ولا شفاعة. وإن كان على لفظ العموم، فالمراد به الخصوص بلا خلاف، لأنّ عندنا قد تكون شفاعة في إسقاط الضّرر، وعند مخالفينا في الوعيد قد يكون في زيادة المنافع.

---

(١٤٠) روضة الكافي ٨ / ١٦٢، الرّقم ١٦٧، والبحار ٨ / ٥٧، الرّقم ٧١.

(١٤١) منها: الإختصاص: ٣٧ وقد روى عن النّبيّ صلّى اللهّ عليه وآله وسلّم: أمّا فضلي على النّبيين، فما من نبيّ إلاّ دعا على قومه وأنا اخترت دعوتي شفاعة لأمّتي يوم القيامة...، وراجع البحار ٨ / ٣٠ كتاب العدل والمعاد الباب ٢١: الشّفاعة.

(١٤٢) عيون أخبار الرّضا عليه السّلام ٢ / ١٢٥، الرّقم ٣٥، والبحار ٨ / ٣٤، الرّقم ٣.

(١٤٣) الإعتقادات في دين الإمامية: ٦٦، والبحار ٨ / ٥٨، الرّقم ٥٧.

(١٤٤) أوائل المقالات: ٧٩ ـ ٨٠ ، القول في الشّفاعة، الرّقم ٥٧.

فقد أجمعنا على ثبوت شفاعة، وإنّما ننفي نحن الشّفاعة قطعاً عن الكفّار، ومخالفونا عن كلّ مرتكب كبيرة إذا لم يتب منها[١٤٥].

٤ ـ وقال الشّيخ الطّبرسيّ رحمه الله في تفسير الآية ٤٨ سورة البقرة:

ولا يقبل منها شفاعة. قال المفّسرون: حكم هذه الآية مختصّ باليهود لأنّهم قالوا: نحن أولاد الأنبياء وآباؤنا يشفعون لنا، فأيأسهم الله عن ذلك، فخرج الكلام مخرج العموم والمراد به الخصوص.

ويدلّ على ذلك: أنّ الأمّة أجمعت على أنّ للنّبيّ صلّى الله عليه وآله شفاعة مقبولة و إن اختلفوا في كيفيتها... .

وهي ثابتة عندنا للنّبيّ صلّى الله عليه وآله ولأصحابه المنتجبين وللأئمّة من أهل بيته الطّاهرين ولصالحي المؤمنين وينجّى الله تعالى بشفاعتهم كثيراً من الخاطئين. ويؤيده الخبر الّذي تلقّته الأمّة بالقبول وهو قوله صلّى الله عليه وآله: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائرمن أمّتي». وما جاء في روايات أصحابنا رضي الله عنهم مرفوعاً إلى النّبيّ صلّى الله عليه وآله أنّه قال: «إنّي أشفع يوم القيامة فأشفّع، ويشفع عليّ فيشفع، ويشفع أهل بيتي فيشفعون، وإنّ أدنى المؤمنين شفاعة ليشفع في أربعين من إخوانه كلّ قد استوجبوا النّار»[١٤٦].

٥ ـ وقال المحقّق الطّوسيّ رحمه الله: والإجماع على الشّفاعة. فقيل لزيادة المنافع و يبطل منّا في حقّه. ونفي المطاع لا يستلزم نفي المجاب. وباقي السّمعيات متأوّلة بالكفّار وقيل: في إسقاط المضارّ.

والحقّ: صدق الشّفاعة فيهما. وثبوت الثّاني له صلّى الله عليه وآله لقوله: «ادخّرت شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي»[١٤٧].

٦ ـ وقال العلاّمة في شرحه: أقول: إتّفقت العلماء على ثبوت الشّفاعة للنّبيّ صلّى الله عليه وآله ويدلّ عليه قوله تعالى: (**عَسى أَنْ يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقامًا مَحْمُودًا**)[١٤٨]. قيل: إنّه الشّفاعة...[١٤٩].

٧ ـ وقال الفاضل المقداد السّيوري رحمه الله: بعد كلام له: ثمّ اعلم أنّ صاحب الكبيرة إنّما يعاقب إذا لم يحصل له أحد الأمرين:

الأوّل: عفو الله... .

---

(١٤٥) التّبيان في تفسير القرآن ٢ / ٣٠٦، والبحار ٨ / ٦٢.

(١٤٦) مجمع البيان في تفسير القرآن ١ / ١٣٢، والبحار ٨ / ٣٠.

(١٤٧) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٦٤.

(١٤٨) سورة الإسراء، الآية: ٧٩.

(١٤٩) كشف المراد: ٥٦٤.

الثّاني: شفاعة نبيّنا رسول اللّه صلّى الله عليه وآله، فإنّ شفاعته متوقّعة بل واقعة لقوله تعالى: (**وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنينَ وَالْمُؤْمِناتِ**)[١٥٠]. وصاحب الكبيرة مؤمن لتصديقه باللّه ورسوله صلّى الله عليه وآله وإقراره بما جاء به النّبيّ وذلك هو الإيمان. إذ الإيمان في الّلغة هو: التّصديق، وهو هنا كذلك، وليست الأعمال الصّالحة جزء منه لعطفها على الفعل المقتضي لمغايرتها له، وإذا أمر بالإستغفار لم يتركه لعصمته، واستغفاره لأمّته مقبول تحصيلاً لمرضاته لقوله تعالى: (**وَلَسَوْفَ يُعْطيكَ رَبُّكَ فَتَرْضى**)[١٥١].

هذا، مع قوله صلّى الله عليه وآله: «ادّخرت شفاعتي لأهل الكبائر
من أمّتي»[١٥٢].

واعلم: إنّ مذهبنا أنّ الأئمّة عليهم السّلام لهم الشّفاعة في عصاة شيعتهم، كما هو لرسول اللّه صلّى الله عليه وآله من غير فرق، لإخبارهم عليهم السّلام بذلك مع عصمتهم النّافية للكذب عنهم[١٥٣].

٨ ـ وقال الشّيخ الفيض الكاشاني رحمه اللّه: الشّفاعة حقّ، والحوض حقّ.

قال النّبيّ صلّى اللّه عليه وآله: «من لم يؤمن بحوضي فلا أورده اللّه حوضي، ومن لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي. ثمّ قال: إنّما شفاعتي لأهل الكبائر من أمتي، فأمّا المحسنون فما عليهم من سبيل»[١٥٤].

وفي رواية أخري: «شفاعتي لأهل الكبائر من أمّتي ما خلا الشّرك والظّلم»[١٥٥].

وقال صلّى الله عليه وآله: «إنّ من أمّتي من يدخل الجّنة بشفاعته
أكثر من مضرّ»[١٥٦].

وقيل: أقلّ المؤمنين شفاعة من يشفع لثلاثين إنساناً...[١٥٧].

وقال رحمه اللّه: إعلم أنّه إذا حقّ دخول النّارعلى طوائف من المؤمنين، فإنّ اللّه تعالى بفضله يقبل منهم شفاعة الأنبياء والصديقين، بل شفاعة العلماء والصّالحين، وكلّ من له عند اللّه تعالى جاهٌ بحسن معاملته، فإنّ له شفاعة في أهله وقرابته وأصدقائه ومعارفه، فكن حريصاً على أن تكسب لنفسك عند اللّه رتبة الشّفاعة، وذلك بأن لا تحقّر آدميّاً أصلاً، فإنّ اللّه تعالى خبّأ ولايته في عباده، فلعلّ الّذي تزدريه عينك هو وليّ اللّه.

---

(١٥٠) سورة محمد، الآية: ١٩.

(١٥١) سورة الضحى، الآية: ٥.

(١٥٢) بحار الأنوار ٨ / ٣٠.

(١٥٣) النافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٤ ـ ١٢٦، الفصل السّابع في المعاد.

(١٥٤) أمالي الصّدوق: ٥٦، الرّقم ٤، والبحار ٨ / ٣٤، الرّقم ٣.

(١٥٥) روضة الواعظين: ٥٠١ والخصال ٢ / ٣٢٤، الرّقم ٣٦، أبواب السّبعة وفيه: وأمّا شفاعتي ففي أصحاب الكبائر ما خلا أهل الشرك والظلم.

(١٥٦) أخرجه أحمد في مسنده ٥ / ٣١٣ وابن ماجه في سننه ٢ / ١٤٤٦ والحاكم في مستدركه ١ / ٧١ وغيرهم.

(١٥٧) المحجّة البيضاء ١ / ٢٥٣.

ولا تستصغر معصية أصلاً، فإنّ الله تعالى خبّأ غضبه في معاصيه، فلعلّ مقت الله فيه.

ولا تستحقر طاعة أصلاً، فإنّ الله تعالى خبّأ رضاه في طاعاته، فلعلّ رضا الله فيها و لو الكلمة الطيبة أو اللّقمة أو النّية الحسنة أو ما يجري مجراها.

وشواهد الشّفاعة في القرآن والأخبار كثيرة...[١٥٨].

٩ ـ وقال الشّيخ المجلسيّ رحمه الله ما ترجمته:

الفصل الثّاني عشر: في بيان الوسيلة واللّواء والحوض والشّفاعة، وسائر منازل رسول الله وأهل بيته يوم القيامة.

إعلم أنّه قد تواترت أحاديث الخاصّة والعامّة في كلّ واحد من هذه الأمور، بل أنّها من ضروريات الدّين، وأنّ الإيمان بها واجب، ولا سيما الحوض والشّفاعة. ونحن نورد شيئاً يسيراً من أخبارها في هذا الكتاب، وقد ذكر أكثرها في حياة القلوب... .

وأمّا الشّفاعة، فلا خلاف فيها بين المسلمين.

ومن الضّروريات الدّينية: أنّ النّبيّ صلّى الله عليه وآله يشفع يوم القيامة لأمّته بل لسائر الأمم أيضاً... .

ولا خلاف بين علماء الإمامية: إنّ الشّفاعة هي لإسقاط العقاب عن فسّاق الشّيعة و إن كانوا أصحاب الكبائر. وأنّها ليست مختصّة برسول الله صلّى عليه وآله بل أنّ فاطمة الزّهراء والأئمّة الهادين يشفعون بأمر منه للشّيعة.

وتفيد الأحاديث المتكثّرة: أنّ علماء الشّيعة وصلحائهم أيضاً يشفعون...[١٥٩].

الشّفعاء

يتبين من آيات القرآن الكريم ونصوص الرّوايات الشّريفة وكلمات الفقهاء والمحدّثين وعلماء الكلام: أنّ هناك شفعاء يشفعون للمؤمنين في يوم القيامة فيشفّعهم الله تعالى فيهم ويعفو عنهم بهم، وإليك ذلك بالتّفصيل:

١ ـ الأنبياء و الرّسل:

فقد قال تعالى: (**وَقالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمنُ وَلَدًا سُبْحانَهُ بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ * لا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ * يَعْلَمُ ما بَيْنَ أَيْديهِمْ وَما خَلْفَهُمْ وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى وَهُمْ مِنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ**)[١٦٠].

وعن الصّادق عن آبائه عن عليّ عليهم الصّلاة والسّلام قال: «قال رسول الله صلّى الله عليه وآله ثلاثة يشفعون إلى الله عزّوجلّ فيشفّعون: الأنبياء، ثمّ العلماء، ثمّ الشّهداء»[١٦١].

هذا، لكن قد ينافيه ظاهر قوله صلّى الله عليه وآله في حديث آخر رواه جماعة: أعطيت خمساً لم يعطها أحد قبلي، وعدّ فيها الشّفاعة، وقد تقدّم نصّه.

---

(١٥٨) المحجّة البيضاء ٨ / ٣٤٨ ـ ٣٤٩.

(١٥٩) حق اليقين: ٢٠٦ ـ ٢١٣، الحجريّة.

(١٦٠) سورة الأنبياء: الآية: ٢٦ ـ ٢٨.

(١٦١) البحار ٨ / ٣٤، الرّقم ٢ عن الخصال: ١٥٦.

إلاّ أن يجمع بينهما على أنّ شفاعته صلّى اللهّ عليه وآله أكثر تأثيراً من سائر الأنبياء، أو أنّ له شفاعة خاصّة لم يعطاها غيره من الأنبياء... .

هذا بالنّسبة إلى عامّة الأنبياء.

وأمّا بالنّسبة إلى نبينا محمّد صلّى الله عليه وآله، فقد تقدّم من الآيات والرّوايات والكلمات ما يدّل على ثبوت الشّفاعة له صلّى اللهّ عليه وآله يوم القيامة.

وقد نصّوا على أنّه ممّا أجمع عليه المسلمون قاطبة[١٦٢].

٢ ـ القرآن الكريم:

فقد تقدّم قول أمير المؤمنين عليه السّلام: «وأنّه من شفع له القرآن يوم القيامة شفّع فيه...»[١٦٣] وروى الشّيخ المجلسي عن الدّيلمي من محدّثي العامّة عن رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه وآله أنّه قال: «الشّفاعة خمسة: القرآن والرّحم والأمانة ونبيكم وأهل بيت نبيكم»[١٦٤].

فالقرآن الكريم إذاً ممّا يشفع يوم القيامة.

٣ ـ الأئمّة الطّاهرون:

فقد تقدّم من الرّوايات ما يدلّ على أنّ الأئمّة المعصومين الطّاهرين وأمّهم الصّدّيقة الزّهراء عليهم الصّلاة والسّلام، يشفعون لشيعتهم ومحبّيهم ومواليهم يوم القيامة فيشفّعهم اللهّ تعالى فيهم.

وقد نصّ جماعة من أكابرالطّائفة أنّ هذا الإعتقاد ممّا أجمع عليه الأصحاب، وأنّه من الضّروريات، ومنهم الشّيخ المفيد والشّيخ الطّبرسيّ والشّيخ المقداد والشّيخ المجلسيّ رحمهم اللهّ، وقد تقدّمت كلماتهم[١٦٥].

٤ ـ الملائكة:

قال تعالى: (**وَكَمْ مِنْ مَلَك فِي السَّماواتِ لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللهُّ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى**)[١٦٦].

وفي البحار وحقّ اليقين عن الشّيخ الصّدوق: قال صلّى الله عليه وآله «... والشّفاعة للأنبياء، والأوصياء والمؤمنين والملائكة»[١٦٧].

---

(١٦٢) التجريد وشرحه: ٥٦٦، وراجع تفسير الرازي ٣ / ٦٥ وغيره.

(١٦٣) نهج البلاغة ٢ / ٩٢، ومستدرك الوسائل ٤ / ٢٣٩، الرّقم ٥.

(١٦٤) المناقب ٢ / ١٤، والبحار ٨ / ٤٣، الرّقم ٣٩، والجامع الصّغير ٢ / ٨٦ ، الرّقم ٤٩٤٢، وينابيع المودّة ٢ / ٩٥، الرّقم ٢٢٣، وكنز العمّال ١٤ / ٣٩٠، الرّقم ٣٩٠٤١.

(١٦٥) في الصفحة: ٦٤ فما بعد.

(١٦٦) سورة النجم، الآية: ٢٦.

(١٦٧) البحار ٨ / ٥٨، الرّقم ٧٥ نقلاً عن الإعتقادات في دين الإمامية: ٦٦.

وتفيده روايات عديدة... .

٥ ـ العلماء:

ففي روايات عديدة أنّ العلماء يشفعون ويشفّعون، ومنها:

قول الإمام الصّادق عليه السّلام: «إذا كان يوم القيامة بعث الله العالم والعابد، فإذا وقفا بين يدي الله عزّوجلّ قيل للعابد: إنطلق إلى الجنّة. وقيل للعالم: قف تشفّع للنّاس بحسن تأديبك لهم»[١٦٨].

ومنها: الرّواية المتقدّمة عنه عليه السّلام عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

٦ ـ الشّهداء:

فإنّهم من الشّفعاء يوم القيامة، جاء ذلك في الحديث المتقدّم عن رسول الله صلّى الله عليه وآله.

قال السّيد الطّباطبائي: الظّاهر: أنّ المراد بالشّهداء شهداء معركة القتال كما هو المعروف في لسان الأئمّة في الأخبار، لا شهداء الأعمال كما هو مصطلح القرآن[١٦٩].

٧ ـ المؤمنون:

فقد جاءت الرّوايات المتكثّرة مصرّحة ومؤكّدة شفاعة المؤمنين

بعضهم في بعض و شفاعة الصّديق في صديقه، والحميم في حميمه، والرّجل في أهل بيته وأسرته...[١٧٠].

معنى الشّفاعة وأثرها

الشّفاعة في اللّغة: السّئوال في التّجاوز عن الذّنوب والجرائم[١٧١].

وأضاف الشّيخ الطريحي رحمه الله قوله: ومنه قوله صلّى الله عليه وآله: أعطيت الشّفاعة.

وقال الرّاغب: الشّفاعة: الإنضمام إلى آخر ناصراً له وسائلاً عنه. وأكثر ما يستعمل في انضمام من هو أعلى حرمةً ومرتبةً إلى من هو أدنى، ومنه الشّفاعة في القيامة: قال: (**لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا**) (**لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ**) (**لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا**) (**وَلا يَشْفَعُونَ إلاّ لِمَنِ ارْتَضى...**)[١٧٢].

والّذي تفيده الآيات والرّوايات: إنّ الشّفاعة لا تقع إلاّ برضى من الله تعالى وإذن منه... فليست الشّفاعة في القيامة جزافية، وليس الحكم فيها إلاّ لله، فهو يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، إلاّ أنّه يأذن لأنبيائه وأوليائه وعباده الصّالحين ـ برحمة منه ولطف لعباده ـ في أن يشفعوا فيشفّعهم تعالى فيهم.

---

(١٦٨) البحار ٨ / ٥٦، الرّقم ٦٦ نقلاً عن علل الشّرائع ٢ / ٣٩٤، الرّقم ١١، وبصائر الدّرجات: ٢٧، الرّقم ٧، باب فضل العلم على العابد.

(١٦٩) الميزان في تفسير القرآن ١ / ١٧٩.

(١٧٠) كما جاء في البحار ٨ / ٣٨، كتاب العدل والمعاد باب الشّفاعة. حيث قال: ثمّ قال أبو جعفر عليه السّلام: إنّ لرسول الله صلّى الله عليه وآله الشّفاعة في أمّته، ولنا شفاعة في شيعتنا، ولشيعتنا شفاعة في أهاليهم. ثمّ قال: وإنّ المؤمن ليشفع في مثل ربيعة ومضر، وإنّ المؤمن ليشفع حتّى لخادمه، ويقول: يا ربّ حقّ خدمتي، كان يقيني الحرّ والبرد.

(١٧١) النهاية في غريب الحديث ٢ / ٤٨٥، ولسان العرب ٨ / ١٨٤، ومجمع البحرين ٢ / ٥٢٣، وشرح أصول الكافي ١٢ / ٨٩ .

(١٧٢) مفردات غريب القرآن: ٢٦٣.

ولذلك يقول تعالى: (**لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلاّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْدًا**)[١٧٣].

ويقول عزّ من قائل: (**يَوْمَئِذ لا تَنْفَعُ الشَّفاعَةُ إِلاّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً**)[١٧٤].

ويقول سبحانه: (**لا تُغْني شَفاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى**)[١٧٥].

ويقول عزّوجلّ: (**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضى...**)[١٧٦].

إلى غير ذلك من الآيات[١٧٧].

ودلّ الكتاب والسّنة وكلمات العلماء: على أنّ الكفّار والمشركين والنّواصب لا تنالهم الشّفاعة، بل إنّها تخصّ المذنبين من المؤمنين، لأنّهم الّذين ارتضى الله تعالى دينهم واعتقادهم.

وليست الشّفاعة مجرّد توسّط ـ قد يؤثّر وقد لا يؤثّر ـ بل إنّها عهد من الله تعالى لجملة من عباده، ومنحة منه لصفوة خلقه، فلابدّ من إجابة طلبهم، وإظهار شأنهم ومنزلتهم وقربهم منه سبحانه تعالى.

وبعد أن علم أنّه لا يفوز الكافرون والمشركون والمجرمون، وأنّها تخصّ المذنبين من المؤمنين وهم أهل الكبائر ـ كما نصّت على ذلك الرّوايات ـ ... .

فإنّ أثرهذه الشّفاعة يكون باسقاط العقاب، ورفع العتاب، وبعبارة أخرى: أنّه عند ما يشفع الشّفيع للرّجل المجرم المرتكب للكبيرة غيرالتّائب منها، تقبل شفاعته فيه، وبذلك يخرج عن كونه مستحقّاً للتّعذيب بالعقوبة المعينة لتلك الكبيرة، ويدخل في رحمة الله ورضوانه... .

وعلى هذا إتفق الإمامية... ووافقهم عليه أكثر العامّة.

هذا، وقد نصّ المحقّق الطّوسيّ والعلاّمة رحمهما الله، على أنّ الشّفاعة قد تكون سبباً لزيادة المنافع أيضاً، فهي نافعة لدفع المضارّ وزيادة المنافع معاً عندهما.

وأمّا المعتزلة، فقد ذهبوا إلى أنّ الشّفاعة لا تقع ولا تنفع إلاّ في زيادة المنافع للمؤمنين المستحقّين للثّواب لإيمانهم، وأمّا إسقاط العقاب والمضارّ فلا يكون، لوجوب تعذيب أصحاب الكبائر الّذين لم يتوبوا، لأنّهم أوعدوا به، والوفاء بالوعيد واجب كالوفاء بالوعد من غير فرق.

أدلّة المعتزلة

وقد استدّل المعتزلة القائلون بهذا، بآيات من القرآن الكريم ـ وهي الآيات النّافية للشّفاعة، أو لأثرها يوم القيامة، والمتقدّم في النّوع الثّاني من آيات الكتاب ـ وهي:

---

(١٧٣) سورة مريم، الآية: ٨٧ .

(١٧٤) سورة طه، الآية: ١٠٩.

(١٧٥) سورة النّجم، الآية: ٢٦.

(١٧٦) سورة الأنبياء، الآية: ٢٨.

(١٧٧) وقد تقدّم البحث عنها في الصفحة: ٥٦.

١ ـ قوله تعالى: (**ما لِلظّالِمينَ مِنْ حَميم وَلا شَفيع يُطاعُ**)[١٧٨].

٢ ـ قوله تعالى: (**وَما لِلظّالِمينَ مِنْ أَنْصار**)[١٧٩].

٣ ـ قوله تعالى: (**وَاتَّقُوا يَوْمًا لا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْس شَيْئًا وَلا يُقْبَلُ مِنْها شَفاعَةٌ وَلا يُؤْخَذُ مِنْها عَدْلٌ وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ...**)[١٨٠].

٤ ـ قوله تعالى: (**فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشّافِعينَ**)[١٨١].

٥ ـ قوله تعالى: (**لا بَيْعٌ فيهِ وَلا خُلَّةٌ وَلا شَفاعَةٌ**)[١٨٢].

٦ ـ قوله تعالى: (**وَلا يَشْفَعُونَ إِلاّ لِمَنِ ارْتَضى**)[١٨٣].

فالآيات الّتي ينفي فيها قبول الشّفاعة عن الظّالمين تدلّ على عدم سقوط عذاب المذنبين لأنّهم فسّاقٌ ظالمون.

والآيات التّالية تنفي الشّفاعة و أثرها، فكلٌّ ملاق جزاء عمله.

والآية الأخيرة تنفي شفاعة الملائكة عن غير المرضيّ للّه تعالى، والفاسق لارتكابه غيرالمرضيّ غير مرتضى.

الجواب: ولقد أبطل علماؤنا أدلّتهم، وأجابوا عمّا استدلّوا به، فأوضحوا خطأهم، وبيّنوا أنّه لا دليل لما ذهبوا إليه:

فأوّلاً: بالأخبار المتواترة الدّالّة على سقوط العقاب عن فسّاق المؤمنين بشفاعة النّبي و آله وغيرهم.

وثانياً: بأنّ الشّفاعة لو كانت في زيادة المنافع فقط، لكنّا نحن شافعين في النّبي صلّى اللّه عليه وآله وسلّم حيث نطلب له من اللّه تعالى علوّ الدّرجات، والتّالي باطل قطعاً، لأنّ الشّافع يجب أن يكون أعلى من المشفوع فيه، وأكثر حرمةً، وأرفع درجةً ومرتبةً، كما نصّوا عليه، فالمقدّم مثله.

والجواب عمّا استدلّوا به:

أمّا عن الآيتين الأولى والثّانية: فبأنّ المراد من الظّالمين فيهما الكفّار.

وأمّا عن الآيتين الثّالثة والخامسة: فبأنّهما لا تنفيان مطلق الشّفاعة، بل إنّهما تنفيان الشّفاعة بغير إذن اللّه... ولا ريب أنّ اللّه لا يأذن للشّفاعة في حقّ الكافرين والمشركين.

لأنّه تعالى ذكر في مواضع كثيرة من كتابه أنّه لا يغفر أن يكفر ويشرك به... .

وأمّا عن الآية الرّابعة: فبأنّها لا تنفي الشّفاعة، بل تفيد وقوعها يوم القيامة، إلاّ أنّه لا تنال طائفة من المجرمين الكافرين، وهم الّذين جاء ذكرهم قبل الآية بقوله:

---

(١٧٨) سورة غافر، الآية: ١٨.

(١٧٩) سورة البقرة، الآية: ٢٧٠، وسورة آل عمران، الآية: ١٩٢، وسورة المائدة: الآية: ٧٢.

(١٨٠) سورة البقرة: الآية: ٤٨ و ١٢٣.

(١٨١) سورة المدّثر، الآية: ٤٨.

(١٨٢) سورة البقرة، الآية: ٢٥٤.

(١٨٣) سورة الأنبياء: الآية: ٢٨.

(**كُلُّ نَفْس بِما كَسَبَتْ رَهينَةٌ * إِلاّ أَصْحابَ الْيَمينِ * في جَنّات يَتَساءَلُونَ * عَنِ الْمُجْرِمينَ * ما سَلَكَكُمْ في سَقَرَ * قالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ * وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكينَ * وَكُنّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضينَ * وَكُنّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ * حَتّى أَتانَا الْيَقينُ * فَما تَنْفَعُهُمْ شَفاعَةُ الشّافِعينَ**)(١٨٤).

وأمّا عن الآية الأخيرة: فبأنّا لا نسلّم أنّ الفاسق غير مرتضى، بل هو مرتضى لله تعالى في إيمانه.

إشكالٌ و ردٌّ

وهنا إشكال يجب ذكره والجواب عنه، وهو:

إنّ الوعد بالشّفاعة من الله تعالى، والتّأكيد عليه من النّبي صلّى الله عليه وآله إلى درجة يقول صلّى الله عليه وآله: «من لم يؤمن بشفاعتي فلا أناله الله شفاعتي»(١٨٥).

ويقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «من أنكر ثلاثة أشياء فليس من شيعتنا: المعراج، والمساءلة في القبر، والشّفاعة»(١٨٦).

يستلزم تجرّي النّاس على المعصية، وارتكاب المحرّمات، واقتراف الكبائر والسّيئات.

والجواب عنه:

أوّلاً: بالنّقض بالآيات الدّالة على شمول المغفرة وسعة الرّحمة كقوله تعالى: (**إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**)(١٨٧)، وهي في غير مورد التّوبة بدليل استثنائه الشّرك المغفور بالتّوبة.

وثانياً: بالحلّ، فإنّ وعد الشّفاعة أو تبليغها من الأنبياء عليهم السّلام والتّأكيد عليها، إنّما يستلزم تجرّي النّاس على المعصية وإغرائهم على التّمرد والمخالفة، بشرطين:

أحدهما: تعيين المجرم بنفسه ونعته أو تعيين الذّنب الّذي تقع فيه الشّفاعة تعييناً لا يقع فيه لبس بنحو الإنجاز من غير تعليق بشرط جائز.

وثانيهما: تأثير الشّفاعة في جميع أنواع العقاب و أوقاته بأن تقلعه من أصله قلعاً.

فلو قيل: إنّ الطّائفة الفلانية من النّاس، أو كلّ النّاس لا يعاقبون على ما أجرموا، ولا يؤاخذون فيما أذنبوا أبداً، أو قيل: إنّ الذّنب الفلانيّ لا عذاب عليه قطّ، كان ذلك باطلاً من القول، ولعباً بالأحكام والتّكاليف الموجّهة إلى المكلّفين.

---

(١٨٤) سورة المدّثر، الآية: ٣٨ ـ ٤٨.

(١٨٥) أمالي الصّدوق: ٥٦، الرّقم ٤، والبحار ٨ / ٣٤، الرّقم ٣، و ٥٨، الرّقم ٧٤.

(١٨٦) أمالي الصّدوق: ٣٧٠، الرّقم ٥، والبحار ٦ / ٢٢٣، الرّقم ٢٣ و ٨ / ٣٧، الرّقم ١٣.

(١٨٧) سورة النّساء، الآية: ٤٨ و ١١٦.

وأمّا إذا أبهم الأمر من حيث الشّرطين، فلم يعين أنّ الشّفاعة في أيّ الذّنوب وفي حقّ أيّ المذنبين، أو أنّ العقاب المرفوع هو جميع العقوبات وفي جميع الأوقات والأحوال. فلا تعلم نفس هل تنال
الشفاعة الموعودة أو لا؟ فلا تتجرّى على هتك محارم الله تعالى.

غير أنّ ذلك يوقظ قريحة رجائها، فلا يوجب مشاهدة ما تشاهدها من ذنوبها وآثامها قنوطاً من رحمة الله ويأساً من روح الله.

مضافاً إلى قوله تعالى: (**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ**)[188].

فإنّ الآية تدلّ على رفع عقاب السّيئات والمعاصي الصّغيرة على تقدير اجتناب المعاصي الكبيرة، فإذا جاز أن يقول الله سبحانه: إن اتّقيتم الكبائر عفونا عن صغائركم، فليجز أن يقال: إن تحفظّتم على إيمانكم حتّى أتيتموني في يوم اللّقاء بإيمان سليم، قبلت فيكم شفاعة الشّافعين، فإنّ الشّأن كلّ الشّأن في حفظ الإيمان، والمعاصي تضعّف الإيمان وتقسي القلب وتجلب الشّرك.

وقد قال تعالى: (**فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْخاسِرُونَ**)[189].

وقال: (**كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)[190].

وقال: (**ثُمَّ كانَ عاقِبَةَ الَّذينَ أَساؤُا السُّواى أَنْ كَذَّبُوا
بِآياتِ اللهِ**)[191].

وربما أوجب ذلك إنقلاعه عن المعاصي، وركوبه على صراط التّقوى، وصيرورته من المحسنين، واستغنائه عن الشّفاعة بهذا المعنى. وهذا من أعظم الفوائد.

وكذا إذا عيّن المجرم المشفوع له أو الجرم المشفوع فيه، لكن صرّح بشمولها على بعض جهات العذاب، أو بعض أوقاته، فلا يوجب تجرّي المجرمين قطعاً.

والقرآن لم ينطق في خصوص المجرمين، وفي خصوص الذّنب بالتّعيين، ولم ينطق في رفع العقاب، إلاّ بالبعض، فلا إشكال أصلاً[192].

---

(١٨٨) سورة النساء، الآية: ٣١.

(١٨٩) سورة الأعراف، الآية: ٩٨.

(١٩٠) سورة المطففين، الآية: ١٤.

(١٩١) سورة الروم، الآية: ١٠.

(١٩٢) الميزان في تفسير القرآن ١ / ١٦٥ ـ ١٦٦.

البحث الخامس

في التوبة

١ ـ معنى التّوبة

التّوبة في اللّغة: الرّجوع[١٩٣] والإنابة. يقال: تاب إلى الله يتوب توباً وتوبةً ومتاباً:

إذا أناب ورجع عن المعصية إلى الطّاعة[١٩٤]، فهو من: تاب بمعنى: أناب[١٩٥].

وأصل التّوبة: الرّجوع عمّا سلف، والنّدم على ما فرط[١٩٦].

وقال الفيومي: تاب من ذنبه يتوب توباً وتوبةً ومتاباًً: أقلع[١٩٧].

وقيل: التّوبة هي التّوب، ولكن الهاء لتأنيث المصدر.

وقيل: التّوبة واحدة كالضّربة، فهو تائب...[١٩٨].

وقال الرّاغب: التّوب: ترك الذّنب على أجمل الوجوه وهو أبلغ وجوه الإعتذار، وهو: أن يقول المعتذر: فعلت وأسأت وقد أقلعت، وهذا هو التّوبة[١٩٩].

ويظهر من القاموس والتّاج: أنّ لـ«تاب» مصدرين آخرين غير ما ذكر من المصادر، وهما: تابه على وزن غابة، وتتوبة.

أمّا الأوّل فيشهد له قول الشّاعر:

تبت إليك فتقبل تابتي *** وصمت ربّي فتقبل صامتي

وأمّا الثّاني: فهو من كتاب سيبويه،إلاّ أنّه شاذٌّ[٢٠٠].

لكن جاء في لسان العرب بعد أن ذكر المصادر الثّلاثة ما نصّه:

---

(١٩٣) لسان العرب: ٣١٩، والمصباح المنير ٢ / ٦٢٩ مادّة نوب.

(١٩٤) لسان العرب ١ / ٢٣٣.

(١٩٥) تاج العروس ١ / ١٦١.

(١٩٦) التّبيان في تفسير القرآن ١ / ١٦٩، ومجمع البيان ١ / ١٧٤ ـ ١٧٥.

(١٩٧) وكذا في مجمع البحرين ١ / ٣٠٠.

(١٩٨) انظر: مجمع البحرين ١ / ٣٠٠ حيث قال: والهاء في التوبة قيل: لتأنيث المصدر، وقيل: للوحدة، كالضّربة.

(١٩٩) مفردات غريب القرآن: ٧٦.

(٢٠٠) تاج العروس ١ / ١٦٦.

فأمّا قوله: تبت إليك... إنّما أراد: توبتي وصومتي، فأبدل الواو ألفاً لضرب من الخفّة، لأنّ هذا الشّعر ليس بمؤسّس كلّه، ألا ترى أنّ فيها:

أدعوك يا ربّ من النّار التي *** أعددت للكفّار في القيامة

فجاء بالّتي وليس فيها ألف تأسيس[٢٠١].

والتّوبة في الإصطلاح الشّرعي:

فقد اختلف كلماتهم في معناها على أقوال:

فقيل: النّدم على الذّنب لكونه ذنباً، فخرج النّدم على شرب الخمر مثلاً لإضراره بالجسم[٢٠٢]. وقد يزاد: مع العزم على ترك المعاودة أبداً.

والظّاهر: أنّ هذا العزم لازم لذلك النّدم غير منفك عنه[٢٠٣].

وقيل: النّدم على المعصية لكونها معصية والعزم على ترك المعاودة في المستقبل، لأنّ ترك العزم يكشف عن نفي النّدم[٢٠٤].

وقيل: النّدم على القبيح في الماضي، والتّرك له في الحال، والعزم على عدم المعاودة إليه في الإستقبال[٢٠٥].

وقيل: ترك الذّنب لقبحه، والنّدم على ما فرط منه، والعزيمة على ترك المعاودة، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال بالإعادة. فمتى

اجتمعت هذه الأربع فقد كمل شرائط التّوبة[٢٠٦].

وقيل: النّدم على ما مضى من القبيح، والعزم على أن لا يعود إلى مثله في القبح[٢٠٧].

وقيل: ترك المعاصي في الحال، والعزم على تركها في الإستقبال، وتدارك ما سبق من التّقصير[٢٠٨].

هذه بعض الكلمات في تعريف التّوبة إصطلاحاً، ويمكن تلخيصها بهذه الصّورة:

إنّه قال جماعة بأنّ التّوبة هي: النّدم على فعل المعصية لكونها معصية. وقال آخرون بوجوب إضافة قيد: العزم على ترك المعاودة، وأضاف آخرون: وجوب تدارك ما سبق من التّقصير في الأعمال إن أمكن.

---

(٢٠١) لسان العرب ١ / ٢٣٣.

(٢٠٢) رياض السّالكين: ٤٠٤، ومجمع البحرين ١ / ٣٠٠.

(٢٠٣) جواهر الكلام ٤١ / ١١٤.

(٢٠٤) كشف المراد: ٤٤٤، وبحار الانوار ٦ / ٤٣ نقلاً عنه.

(٢٠٥) النّافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٧، وجواهر الفقه لابن البرّاج: ٢٥١.

(٢٠٦) مفردات غريب القرآن: ٧٦.

(٢٠٧) مجمع البيان ١ / ١٧٦.

(٢٠٨) جامع السعادات ٣ / ٣٨.

٢ ـ وجوب التّوبة

التّوبة إلى اللهّ عزّوجلّ واجبة بالكتاب، والسّنة، والإجماع، والعقل.

أمّا الكتاب: فلقد أمر اللهّ سبحانه وتعالى عباده بالتّوبة من الذّنوب، والرّجوع إلى طاعته، وإليك بعض آيات الكتاب العزيز في ذلك:

١ ـ قال تعالى: (**وَتُوبُوا إِلَى اللهِ جَمِيعًا أَيُّهَا الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ**)[٢٠٩].

٢ ـ وقال تعالى: (**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسى رَبُّكُمْ أَنْ يُكَفِّرَ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ**)[٢١٠].

وسيأتي معنى التّوبة النّصوح.

٣ ـ وقال تعالى: (**وَأَنيبُوا إِلى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذابُ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ**)[٢١١].

٤ ـ وقال تعالى: (**وَأَنِ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ يُمَتِّعْكُمْ مَتاعًا حَسَنًا إِلى أَجَل مُسَمًّى وَيُؤْتِ كُلَّ ذي فَضْل فَضْلَهُ**)[٢١٢].

٥ ـ وقال تعالى لنبيه صلى اللهّ عليه وآله: (**قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ وَإِنْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الأَوَّلينَ**)[٢١٣].

وأمّا السنّة: فلقد دلّت الرّوايات المتكثّرة الواردة عن النّبيّ الأكرم وآله الطيبين عليه وعليهم الصّلاة والسّلام على وجوب التّوبة... وإليك بعض تلك النصوص:

منها: قال رسول اللهّ صلّى اللهّ عليه وآله: «إنّ اللهّ يقبل توبة عبده ما لم يغرغر. توبوا إلى ربّكم قبل أن تموتوا، وبادروا بالأعمال الزّاكية قبل أن تشتغلوا، وصلوا الذي بينكم و بينه بكثرة ذكركم إياه»[٢١٤].

ومنها: قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «توبوا إلى اللهّ عزّوجلّ، وادخلوا في محبّته، فإنّ اللهّ يحبّ التّوابين ويحبّ المتطهّرين، والمؤمن توّاب»[٢١٥].

ومنها: قال عليه السّلام: «تعطّروا بالإستغفار لا تفضحنكم روائح الذّنوب»[٢١٦].

---

(٢٠٩) سورة النّور، الآية: ٣١.

(٢١٠) سورة التّحريم، الآية: ٨ .

(٢١١) سورة الزّمر، الآية: ٥٤.

(٢١٢) سورة هود، الآية: ٣.

(٢١٣) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٢١٤) البحار ٦ / ١٩، الرّقم ٥، و ٧٨ / ٢٤٠، الرّقم ٣، نقلاً عن الدّعوات للرّاوندي، ومستدرك الوسائل ٢ / ١٣٣، الرّقم ١٦٢١ وفيه: توبوا إلى بارئكم بدل: ربّكم.

(٢١٥) الخصال: ٦٢٣، حديث أربعمائة، والبحار ٦ / ٢١، الرّقم ١٤ نقلاً عنه، وتفسير نور الثّقلين ١ / ٢١٦، الرّقم ٨٢١ ، وتفسير كنز الدّقائق ١ / ٥٣١.

(٢١٦) أمالي الطّوسي: ٣٧٢، الرّقم ٨٠٩ ، والبحار ٦ / ٢٢، الرّقم ١٨ نقلاً عنه، ووسائل الشّيعة ١٦ / ٧٠، الرّقم ١٧، وشرح النّهج ٢٠ / ٢٨١، الرّقم ٢٢٥.

ومنها: قال عليه السّلام: «باب التّوبة مفتوح لمن أرادها. فتوبوا إلى
الله توبةً نصوحاً عسى ربّكم أن يكفّر عنكم سيئاتكم...»[٢١٧].

ومنها: قال عليه السّلام: «... لا خير في الدّنيا إلاّ لرجلين: رجل أذنب ذنوباً فهو يتداركها بالتّوبة، ورجل يسارع في الخيرات»[٢١٨].

وأمّا الإجماع: لقد نصّ علماء الحديث والكلام والأخلاق على وجوب التّوبة من الذّنوب، مصرّحين بأنّ ذلك ممّا أجمع عليه المسلمون. وهذه بعض كلماتهم:

١ ـ قال العلاّمة رحمه الله: وهي واجبة بالإجماع[٢١٩].

وقال رحمه الله: ويجب الإقرار بكلّ ما جاء به النّبي صلّى الله عليه وآله فمن ذلك... الثّواب والعقاب... ووجوب التّوبة[٢٢٠].

٢ ـ وقال الشّيخ الطّبرسي رحمه الله: وكلّ معصية لله تعالى فإنّه يجب التّوبة منها[٢٢١].

٣ ـ وقال الشّيخ الفاضل المقداد رحمه الله: وهي واجبة لوجوب
النّدم إجماعاً على كلّ قبيح وإخلال بواجب[٢٢٢].

٤ ـ وقال الشّيخ النّراقي رحمه الله: فصل: وجوب التّوبة: التّوبة عن الذّنوب بأسرها واجبة: الإجماع والنّقل والعقل. أمّا الإجماع فلا ريب في انعقاده...[٢٢٣].

٥ ـ وقال الشّيخ الفيض الكاشاني رحمه الله: إعلم: أنّ وجوب التّوبة ظاهر بالأخبار والآيات، وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته، وشرح الله بنور الإيمان صدره... .

قال أبو حامد: والإجماع منعقد من الأمّة على وجوبها. إذ معناه: العلم بأنّ الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعّدات من الله، وهذا داخل في وجوب الإيمان...[٢٢٤].

٦ ـ وقال الشّيخ المجلسيّ رحمه الله: لا خلاف في وجوبها في الجملة[٢٢٥].

---

(٢١٧) الخصال: ٦٢٤، والبحار ١٠ / ١٠٢، و ٧٠ / ٣٥٠، الرّقم ٤٧.

(٢١٨) روضة الواعظين: ٤٧٨ ـ ٤٧٩ وفيه: رجل أذنب ذنباً بدل: ذنوباً، والبحار ٦ / ٣٨، الرّقم ٦٢، وشرح النّهج ١٨ / ٢٥٠.

(٢١٩) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٦٦، المسألة الحادي عشرة.

(٢٢٠) النّافع يوم الحشر في شرح الباب الحادي عشر: ١٢٧، الفصل السّابع.

(٢٢١) تفسير مجمع البيان ١ / ١٧٦.

(٢٢٢) النّافع يوم الحشر في الباب الحادي عشر: ١٢٧.

(٢٢٣) جامع السّعادات ٣ / ٤٣.

(٢٢٤) المحجّة البيضاء ٧ / ٦ و ٩.

(٢٢٥) البحار ٦ / ٤٢

وأمّا العقل: والعقل يحكم بالتّوبة، لأنّ التّوبة تدفع الضّرر المترتّب على فعل المعصية والإخلال بالواجب. ولما كان العقل حاكماً

بوجوب دفع الضّرر ـ وإن كان غير قطعيّ ـ فإنّها إذاً واجبة بحكم العقل.

وقال الشّيخ النّراقي رحمه الله:

وأمّا العقل: فهو أنّ من علم معنى الوجوب، ومعنى التّوبة، فلا يشكّ في ثبوته لها.

بيان ذلك: أنّ معنى الواجب وحقيقته هو: ما يتوقّف عليه الوصول إلى سعادة الأبد، والنّجاة من الهلاك السّرمد، ولولا تعلّق السّعادة والشّقاوة بفعل الشيء وتركه، لم يكن معنى لوجوبه، فالواجب ما هو وسيلة وذريعة إلى سعادة الأبد ولا ريب في أنّه لا سعادة في دار البقاء إلاّ في لقاء الله والأنس به، فكلّ من كان محجوباً عن اللّقاء والوصال، محروماً عن مشاهدة الجلال والجمال، فهو شقيّ لا محالة، محترق بنار الفراق ونار جهنّم.

ثمّ لا مبعّد عن لقاء الله إلاّ اتّباع الشّهوات النّفسية والغضب، والأنس بهذا العالم الفانيّ، والإكباب على حبّ ما لابدّ من مفارقته قطعاً، ويعبّر عن ذلك بالذّنوب، ولا مقرّب من لقاء الله إلاّ قطع علاقة القلب من زخرف هذا العالم، والإقبال بالكلّية على الله طلباً للأنس به بدوام الذّكر، والمحبّة له بدوام الفكر في عظمته وجلاله وجماله على قدر طاقته.

ولا ريب في أنّ الإنصراف عن طريق البعد الذي هو الشّقاوة

واجب، للوصول إلى القرب الذي هو السّعادة.

ولا يتمّ ذلك إلاّ بالتّوبة الّتي عبارة عن العلم و النّدم والعزم ولا يتمّ الواجب إلاّ به فهو واجب فالتّوبة واجبة قطعاً[٢٢٦].

وقال السّيد المحدّث الجزائري رحمه الله: أمّا الوجوب على العبد سمعاً فهو مجمع عليه، وإنّما الخلاف في وجوبها عقلاً، فأثبته المعتزلة وهو الحقّ، لأنّه دفع ضرر وهو واجب عقلاً، ولأنّ الندم على القبيح من مقتضيات العقل الصّحيح[٢٢٧].

٣ ـ فضيلتها في الشّرع

لقد اهتمّ الشّرع ـ كتاباً وسنّةً ـ بالتّوبة إهتماماً بالغاً، وحثّ عليها النّاس، ورغّب فيها العباد، ومدحها المدح العظيم... وإليك بعض الآيات والرّوايات في ذلك:

قال الله تعالى: (**إِنَّ اللهَ يُحِبُّ التَّوّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ**)[٢٢٨].

---

(٢٢٦) جامع السّعادات ٣ / ٤٣ ـ ٤٤.

(٢٢٧) الأنوار النّعمانية ٣ / ١٤٥، وورد في البحار بهذا المضمون ٦ / ٤٨.

(٢٢٨) سورة البقرة، الآية: ٢٢٢.

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «التّائب حبيب الله، والتّائب من الذّنب كمن لا ذنب له»[٢٢٩].

وقال الإمام الباقر عليه السّلام: إنّ الله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من رجل أضلّ راحلته و زاده في ليلة ظلماء، فوجدها، فالله تعالى أشدّ فرحاً بتوبة عبده من ذلك الرجل براحلته حين وجدها[٢٣٠].

وقال الإمام الصّادق عليه السّلام: «إنّ الله عزّوجلّ يفرح بتوبة عبده المؤمن إذا تاب، كما يفرح أحدكم بضالّته إذا وجدها»[٢٣١].

وقال عليه السّلام: «إنّ الله يحبّ من عباده المفتن التّواب»[٢٣٢].

قال الشّيخ الفيض الكاشاني في معنى الحديث:

يعني: الّذي يكثر ذنبه ويكثر توبته، يذنب الذّنب فيتوب منه، ثمّ يبتلي به فيعفو، ثمّ يتوب، وهكذا، من الإفتان والتّفتين، بمعنى الإيقاع في الفتنة.

وقال عليه السّلام: «رحم الله عبداً تاب إلى الله قبل الموت...»[٢٣٣].

وقال عليه السّلام: «إنّ الرّجل ليذنب الذّنب فيدخله الله به الجنّة.

قال الرّاوي: قلت: يدخله الله تعالى بالذّنب الجنّة؟ قال: نعم، إنّه ليذنب، فلا يزال منه خائفاً ماقتاً لنفسه، فيرحمه الله تعالى فيدخله الجنّة»[٢٣٤].

وقال عليه السّلام: «إنّ الله يحبّ العبد المفتن التّواب ومن يكون ذلك منه كان أفضل»[٢٣٥].

وقال أبو الحسن عليه السّلام: «أحبّ العباد إلى الله تعالى المنيبون التّوّابون»[٢٣٦].

وقال الرّضا عليه السّلام: «عن آبائه عليهم السّلام قال رسول الله صلّى الله عليه وآله:... وليس شيء أحبّ إلى الله من مؤمن تائب، أو مؤمنة تائبة»[٢٣٧].

---

(٢٢٩) جامع السعادات ٢ / ٥١، ولم نعثر عليه بهذا اللفظ في كتبنا الحديثية، نعم في بعض كتب أهل السّنة مثل فيض القدير ٣ / ٣٦٤ بهذه العبارة: التائب من الذنب كمن لا ذنب له لأنّ التائب حبيب الله، والظاهر أن التعليل من المؤلّف.

(٢٣٠) الكافي ٢ / ٤٣٥، الرّقم ٨ ، ووسائل الشيعة ١٦ / ٧٣، الرّقم ٦، والبحار ٦ / ٤٠، الرّقم ٧٣.

(٢٣١) الكافي ٢ / ٤٣٦، ووسائل الشيعة ١٦ / ٧٣ ـ ٧٤ الرّقم ٧.

(٢٣٢) الكافي ٢ / ٤٣٢، الرّقم ٤، ووسائل الشيعة ١٦ / ٧٢، الرّقم ٣ عنه، والبحار ٦ / ٤٠، الرّقم ٧٤ عن الكافي.

(٢٣٣) تفسير العياشي ١ / ٣٦١، الرّقم ٢٧، والبحار ٦ / ٣٣، الرّقم ٤٥.

(٢٣٤) الكافي ٢ / ٤٢٦، الرّقم ٣، ووسائل الشيعة ١٦ / ٦١، الرّقم ٢ عنه.

(٢٣٥) الكافي ٢ / ٤٣٥، الرّقم ٩، ووسائل الشيعة ١٦ / ٨٠ ، الرّقم ٢.

(٢٣٦) جامع السّعادات: ٥٢، والكافي ٢ / ٤٣٢، الرّقم ٣، ووسائل الشيعة ١٦ / ٧٣، الرّقم ٤، والبحار ٦ / ٣٩، الرّقم ٦٨، وورد في هذه المصادر المفتنون بدل: المنيبون.

(٢٣٧) عيون أخبار الرّضا عليه السّلام ١ / ٣٣، الرّقم ٣٣، والبحار ٦ / ٢١، الرّقم ١٥.

وقال أبو الحسن عليه السّلام في قوله تعالى: «(**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**) قال: يتوب العبد، ثمّ لا يرجع فيه، وإنّ أحبّ عباد الله إلى الله المتّقي التّائب»[٢٣٨].

٤ ـ فوريتها

تجب التّوبة على المذنب وجوباً فورياً من ذنوبه، ولا يجوز له التّأخير. وهذا ممّا لا خلاف ولا ريب فيه كما صرّح به جماعة.

وقد جاء التّأكيد على هذا في الأخبار، بالإضافة إلى حكم العقل، حيث يحكم بوجوب دفع الضّرر ـ وإن كان ظنياً ـ فوراً.

يقول أمير المؤمنين عليه السّلام لرجل سأله أن يعظه: «لا تكن ممّن يرجو الآخرة بغير العمل، ويرجئ التّوبة بطول الأمل»[٢٣٩].

ويقول عليه السّلام في كلام له: «فاتّقوا تقيّة من سمع فخشع، واقترف فاعترف، ووجل فعمل، وحاذر فبادر، وأيقن فأحسن، وعبّر فاعتبر، وحذّر فازدجر، وأجاب فأناب، ورجع فتاب، واقتدى فاحتذى، وأري فرأى، فأسرع طالباً، ونجا هارباً، فأفاد ذخيرة، وأطاب سريرة، وعمّر معاداً، واستظهر زاداً، ليوم رحيله، ووجه سبيله، وحال حاجته، وموطن فاقته...[٢٤٠].

ويقول عليه السّلام في كلام له: «إحذروا الذّنوب المورّطة، والعيوب المسخطة، أولي الأبصار والأسماع، والعافية والمتاع، هل من مناص أو خلاص أو معاذ أو ملاذ أو فرار أو محار؟ أم لا؟ فأنّى تؤفكون؟ أم أين تصرفون؟ أم بماذا تغترّون؟ وإنّما حظّ أحدكم من الأرض ذات الطّول والعرض قيد قدّه متعفراً على خدّه.

الآن عباد والخناق مهمل، والرّوح مرسل، في فينة الإرشاد، وراحة الأجساد، وباحة الإحتشاد، ومهل البقية، وأنف المشية، وإنظار التّوبة، وإنفساح الحوبة، قبل الضّنك والمضيق، والرّوع والزّهوق، وقبل قدوم الغائب المنتظر، وأخذة العزيز المقتدر»[٢٤١].

ويقول الإمام الباقر عليه السّلام: «ما من عبد إلاّ وفي قلبه نكتة بيضاء، فإذا أذنب ذنباً خرج في النكتة نكتة سوداء، فإن تاب ذهب ذلك السّواد، وإن تمادى في الذّنوب زاد ذلك السّواد حتّى يغطّي البياض، فإذا غطي البياض لم يرجع صاحبه إلى خير أبداً، وهو قول الله عزّوجلّ: (**كَلاّ بَلْ رانَ عَلى قُلُوبِهِمْ ما كانُوا يَكْسِبُونَ**)»[٢٤٢].

---

(٢٣٨) تفسير القمّي ٢ / ٣٧٧، والبحار ٦ / ٢٠، الرّقم ٨ عنه.

(٢٣٩) نهج البلاغة ٤ / ٣٨، الرّقم ١٥٠، والبحار ٦ / ٣٧، الرّقم ٦٠.

(٢٤٠) نهج البلاغة ١ / ١٣٧ ـ ١٣٨، والبحار ٧٤ / ٤٣٨، الرّقم ٤٨ عنه باختلاف يسير.

(٢٤١) نهج البلاغة ١ / ١٤٦، والبحار ٧٤ / ٤٢٩ ـ ٤٣٠، الرّقم ٤٣، وفيه مجاز بدل: محار.

(٢٤٢) الكافي ٢ / ٢٧٣، الرّقم ٢٠، والبحار ٧٠ / ٣٣٢، الرّقم ١٧، والآية: سورة المطفّفين: ١٤.

ويقول الإمام الصّادق عليه السّلام: «كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، أنّ القلب ليواقع الخطيئة، فلا تزال به حتّى تغلب عليه يصير أعلاه أسفله»[٢٤٣].

ومعنى هذين الخبرين: أنّه يجب عليه أن يبادر إلى التّوبة فوراً، لئلاّ يؤدي الذّنب بقلبه إلى هذه الحالة، لأنّ الإستغفار ممحاة، كما قال أمير المؤمنين عليه الصّلاة والسّلام[٢٤٤].

هذا، بالإضافة إلى أنّ التّسويف في التّوبة، وعدم الإسراع فيها، قد ينتهي إلى عدم التّمكن منها، كما إذا عاجله الموت فلم يحصّل مجالاً لها، أو يصير بحيث يصعب عليه الوصول إليها، كما إذا بلغت ذنوبه في الكثرة والتّأثير حدّاً استولت الظّلمة على قلبه، واستغرقت جميع جوانبه، وتراكمت على أطرافه.

إذ في هذه الحالة يصعب جدّاً معالجة هذا القلب، ومحو هذا الأثر منه، ثمّ إرجاعه إلى حالته الطّبيعية الأولى، خالياً من كلّ شائبة.

وهذا هو السّرّ في نهيهم عليهم السّلام عن تسويف التّوبة... .

٥ ـ قبولها

أجمع العلماء على أنّ التّوبة متى استجمعت شرائطها المقرّرة، كانت مقبولةً عند الله عزّوجلّ... .

وقد دلّت في ذلك آيات القرآن الكريم، والرّوايات الشّريفة، وإليك بعضها:

١ ـ قال الله تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوّابُ الرَّحيمُ**)[٢٤٥].

٢ ـ وقال تعالى: (**إِنَّ اللَّهَ تَوّابٌ رَحيمٌ**)[٢٤٦].

٣ ـ وقال تعالى: (**غافِرِ الذَّنْبِ وَقابِلِ التَّوْبِ**)[٢٤٧].

٤ ـ وقال تعالى: (**وَهُوَ الَّذي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبادِهِ**)[٢٤٨].

٥ ـ وقال تعالى: (**وَإِنّي لَغَفّارٌ لِمَنْ تابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صالِحًا ثُمَّ اهْتَدى**)[٢٤٩].

٦ ـ وقال تعالى: (**وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحيمًا**)[٢٥٠].

---

(٢٤٣) الكافي ٢ / ٢٦٨، الرّقم ١، باب الذّنوب، والبحار ٧٠ / ٣١٢، الرّقم ١ عنه.

(٢٤٤) تحف العقول: ٢٩٨، حيث قال عليه السلام: وألحّوا في الإستغفار فإنّه ممحاة للذّنوب، والبحار ٧٥ / ١٧٨، الرّقم ٥٣ عنه.

(٢٤٥) سورة التّوبة، الآية: ١٠٤ و ١١٨.

(٢٤٦) سورة الحجرات، الآية: ١٢.

(٢٤٧) سورة الغافر، الآية: ٣.

(٢٤٨) سورة الشّورى، الآية: ٢٥.

(٢٤٩) سورة طه، الآية: ٨٢ .

(٢٥٠) سورة النّساء، الآية: ١١٠.

٧ ـ وقال تعالى: (**وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كانَ تَوّابًا**)[٢٥١].

٨ ـ وقال تعالى في مواضع: (**إِنَّ اللّهَ غَفُورٌ رَحيمٌ**)[٢٥٢].

٩ ـ وقال تعالى: (**وَلَوْ لا فَضْلُ اللهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ وَأَنَّ اللّهَ تَوّابٌ حَكيمٌ**)[٢٥٣].

١٠ ـ وقال تعالى: (**قُلْ يا عِبادِيَ الَّذينَ أَسْرَفُوا عَلى أَنْفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللهِ إِنَّ اللّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَميعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحيمُ**)[٢٥٤].

١١ ـ وقال تعالى: (**إِنَّ اللّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ**)[٢٥٥].

١٢ ـ وقال تعالى: (**قُلْ لِلَّذينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ ما قَدْ سَلَفَ**)[٢٥٦].

وقال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «لو عملتم الخطايا حتّى تبلغ السّماء، ثمّ ندمتم، لتاب الله عليكم»[٢٥٧].

وقال صلّى الله عليه وآله: «كفّارة الذّنب، النّدامة»[٢٥٨].

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام: «لا شفيع أنجح من التّوبة»[٢٥٩].

وقال عليه السّلام في كلام له: «من أعطى التّوبة لم يحرم القبول»[٢٦٠].

وقال عليه السّلام: «ما كان الله ليفتح على عبد باب الشّكر، ويغلق عنه باب الزّيادة، ولا ليفتح على عبد باب[٢٦١] الدّعاء، ويغلق عنه باب الإجابة، ولا ليفتح على عبد[٢٦٢] باب التّوبة، ويغلق عنه باب المغفرة[٢٦٣].

وقال الإمام الباقر عليه السّلام لمحمّد بن مسلم رحمه الله: «ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف من التّوبة والمغفرة، أما والله إنّها ليست إلاّ لأهل الإيمان.

فقال له: فإن عاد بعد التّوبة والإستغفار من الذّنوب، وعاد في التّوبة؟

---

(٢٥١) سورة النّصر، الآية: ٣.

(٢٥٢) سورة البقرة، الآية: ١٧٣ و ١٨٢ و ١٩٩ وسورة المائدة، الآية: ٣٤ و ٣٩ وسورة التوبة، الآية: ٥ و ١٠٢ وسورة النّور، الآية: ٦٢ وسورة الممتحنة، الآية: ١٢ وسورة المزّمل، الآية: ٢٠.

(٢٥٣) سورة النّور، الآية: ١٠.

(٢٥٤) سورة الزّمر، الآية: ٥٣.

(٢٥٥) سورة النّساء، الآية: ٤٨.

(٢٥٦) سورة الأنفال، الآية: ٣٨.

(٢٥٧) جامع السّعادات ٣ / ٥٢.

(٢٥٨) نفس المصدر السّابق، و مسند أحمد ١ / ٢٨٩، ومجمع الزّوائد ١٠ / ١٩٩، والمعجم الكبير ١٢ / ١٣٤.

(٢٥٩) نهج البلاغة ٤ / ٨٧ ، والكافي ٨ / ١٩، وأمالي الصّدوق: ٣٩٩، ووسائل الشيعة ١٥ / ٣٣٤، الرّقم ٦، والبحار ٦ / ١٩، الرّقم ٦ نقلاً عن الأمالي، و ٦٦ / ٤١١، الرّقم ١٢٨ نقلاً عن النّهج.

(٢٦٠) نهج البلاغة: ٣٣ من خطبه عليه السّلام، والبحار ٦ / ٣٧، الرّقم ٦١ عنه.

(٢٦١) لم يرد في النهّج لفظ باب.

(٢٦٢) في النّهج: لعبد بدل: على عبد.

(٢٦٣) نهج البلاغة ٤ / ١٠٢، الرّقم ٤٣٥، والبحار ٦ / ٣٦، الرّقم ٥٨.

فقال: يا محمّد بن مسلم، أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب، ثمّ لا يقبل الله توبته؟

قال:فإنّه فعل ذلك مراراً، يذنب ثمّ يتوب ويستغفر الله.

فقال: كلّما عاد المؤمن بالإستغفار والتّوبة عاد الله عليه بالمغفرة وإنّ الله غفور رحيم، يقبل التّوبة ويعفو عن السّيئات، فإيّاك أن تقنّط المؤمن من رحمة الله»(٢٦٤).

وقال عليه السّلام: «التّائب من الذّنب كمن لا ذنب له، والمقيم على الذّنب وهو يستغفر منه كالمستهزئ»(٢٦٥).

وقال الصّادق عليه السّلام: في قوله تعالى: «(**فَإِنَّهُ كانَ لِلأَوّابِينَ**
غَفُورًا)، هم التّوابون المتعبّدون(٢٦٦).

وقال عليه السّلام: «شفاعتنا لأهل الكبائر من شيعتنا، وأمّا التّائبون فإنّ الله تعالى يقول: (**ما عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيل**)(٢٦٧).

وقال معاوية بن وهب، سمعت أبا عبدالله عليه السّلام يقول: «إذا تاب العبد المؤمن توبةً نصوحاً أحبّه الله، فستر عليه في الدّنيا والآخرة. قلت: وكيف يستر عليه؟ قال: ينسي ملكيه ما كتبا عليه من الذّنوب، وأوحى إلى جوارحه: أكتمي عليه ذنوبه، وأوحى إلى بقاع الأرض: أكتمي عليه ما كان يعمل عليك من الذّنوب، فيلقى الله حين يلقاه، وليس شيء يشهد عليه بشيء من الذّنوب»(٢٦٨).

هذا، وقد دلّت الآيات الكريمة، والرّوايات المتكثّرة على سقوط العقاب بالتّوبة فالله سبحانه وتعالى لا يعاقب المذنب على ذنبه إذا تاب منه توبة فيها جميع شرائط التّوبة، لأنّه حينئذ ليس بعاص ومذنب، بل بالتّوبة يخرج عن كونه مذنباً، وذلك للطفه الشّامل، وعطفه العامّ، ورحمته الواسعة عندنا، كما سيأتي.

وهذا ـ أعني سقوط العقاب عنه بالتّوبة ـ ممّا أجمع عليه كافّة المسلمين.

واختلف المسلمون في أنّه: إذا تاب المذنب عن ذنبه، هل يجب على الله عزّوجلّ قبول توبته، وإسقاط العقاب عنه، وجوباً بحيث يكون عقابه له بعد التّوبة ظلماً له، أو أنّ إسقاط العقاب عنه بالتّوبة تفضّل منه سبحانه ولطف وكرم؟!

قال الشّيخ الطّبرسيّ رحمه الله: وقبول التّوبة، وإسقاط العقاب عندها تفضّل من الله تعالى غير واجب عليه عندنا. وعند جميع المعتزلة واجب وقد وعدالله تعالى بذلكـوإن كان تفضّلاً ـ وعلمنا أنّه لا يخلف الميعاد(٢٦٩).

---

(٢٦٤) الكافي ٢ / ٤٣٤، الرّقم ٦، ووسائل الشّيعة ١٦ / ٧٩، الرّقم ١، والبحار ٦ / ٤٠، الرّقم ٧١ نقلاً عنه.

(٢٦٥) الكافي ٢ / ٤٣٥، الرّقم ١٠، والبحار ٦ / ٤١، الرّقم ٧٥ عنه، ووسائل الشّيعة ١٦ / ٧٤، الرّقم ٨ .

(٢٦٦) تفسير العياشي ٢ / ٢٨٦، الرّقم ٤٢، والبحار ٦ / ٣٤، الرّقم ٤٧ عنه.

(٢٦٧) من لا يحضره الفقيه ٣ / ٥٧٤، الرّقم ٤٩٦٤، ووسائل الشّيعة ١٥ / ٣٣٤، الرّقم ٥.

(٢٦٨) الكافي ٢ / ٤٣١، الرّقم ١، وثواب الأعمال: ١٧١، ووسائل الشّيعة ١٦ / ٧١، الرّقم ١، والبحار ٦ / ٢٨، الرّقم ٣١، و ٧ / ٣١٧، الرّقم ١٢.

(٢٦٩) مجمع البيان ١ / ١٧٦.

وقد صرّح رحمه الله في موضع آخر بأنّ القول: بأنّه تفضّل، مذهب أصحابنا[٢٧٠].

وقال الشّيخ قدّس سرّه: والتّوبة يجب قبولها لأنّها طاعة، فأمّا إسقاط العقاب عنده فتفضّل منه تعالى، وقالت المعتزلة ومن وافقها:

وذلك واجب، وقد بيّنا الصّحيح من ذلك في شرح الجمل[٢٧١].

وعن العلاّمة رحمه الله: إنّه اختاره في جملة من كتبه الكلامية.

وقال الشّيخ البهائي رحمه الله بعد أن ذكر أنّ القول بالتّفضّل هو رأي الشّيخ والعلاّمة رحمهما الله: ومختار الشّيخين هو الظّاهر، ودليل الوجوب مدخول[٢٧٢].

وقال الشّيخ المجلسي رحمه الله: أنّه هو الظّاهر من الأخبار، وأدعية الصّحيفة الكاملة وغيرها،... ودليل الوجوب ضعيف مدخول كما لا يخفى على من تأمّل فيه[٢٧٣].

ومثله قال السّيد المحدّث الجزائرى[٢٧٤].

وهذا هو الّذى اختاره السّيد الطّباطبائي مستفيداً إياه من آيات القرآن العظيم[٢٧٥].

وهو ظاهر شارح الصّحيفة[٢٧٦].

وإلى هذا القول ذهب جمهور الأشاعرة.

وأمّا المحقّق الطّوسي رحمه الله فقد توقّف في المسألة في التّجريد.

وقد أشار العلاّمة رحمه الله إلى أدلّة الطّرفين في شرح التّجريد[٢٧٧].

٦ ـ أقسامها

تختلف التّوبة باختلاف الذّنب، لأنّه إمّا يكون في حق الله تعالى، أو في حق آدميّ.

أمّا الأوّل:

فإمّا أن يكون من فعل قبيح ارتكبه كشرب الخمر، أو يكون من إخلاله بواجب من الواجبات كالصّلاة اليومية، وصلاة العيد.

---

(٢٧٠) مجمع البيان ١ / ٤٤٨ هكذا: أنّ إسقاط العقاب عند التّوبة تفضّل من الله سبحانه ورحمة من جهته على ما قاله أصحابنا.

(٢٧١) التّبيان ١ / ١٧٠، والإقتصاد ١٢٤ ـ ١٢٥.

(٢٧٢) الأربعين: ٢٢٢.

(٢٧٣) البحار ٦ / ٤٨.

(٢٧٤) الأنوار النّعمانية ٣ / ١٤٧.

(٢٧٥) الميزان في تفسير القرآن ١٧ / ٣١١.

(٢٧٦) رياض السّالكين في شرح صحيفة سيد السّاجدين للسّيد علي بن معصوم المدني الشّيرازي: ٤٧٧.

(٢٧٧) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٧٣.

ففي الحالة الأولى: يكفي أن يندم من فعله ذاك عازماً على عدم ارتكابه في المستقبل على ما تقدّم في تعريف التّوبة.

وفي الحالة الثّانية: إن كان وقت الواجب الّذي أخلّ به باقياً، فتوبته أن يأتي به في الوقت فوراً.

وإن كان قد خرج وقته فلا يخلو:

إمّا أن يكون من الواجبات الّتي تسقط بخروج أوقاتها المعينة لها كصلاة العيد، فيكفي أن يندم على إخلاله بهذا الواجب عازماً على عدم المعاودة، كما تقدّم.

وإمّا أن يكون ممّا لا يسقط بذلك كالصّلاة اليومية، فيجب قضاؤه.

وأمّا الثّانى فلا يخلو:

إمّا أن يكون إضلالاً له في دين وعقيدة، وإمّا أن يكون ظلماً له في حقّ من حقوقه، وإمّا أن يكون غيبةً.

أمّا في الحالة الأولى: فيجب عليه إرشاده،و إرجاعه عن العقيدة الباطلة الّتى إعتقدها بسببه... وهذا توبته.

وأمّا في الحالة الثّانية: فإنّه يجب عليه إيصال حقّه إليه أو إلى ورثته إن مات أو الاستحلال منه أو منهم، وإن لم يتمكن من ذلك وتعذّر عليه فيجب العزم على ذلك.

وكذا إن كان حدّ قذف، وإن كان قصاصاً وجب الخروج إليه أو إلى ورثته منه بأن يسلّم نفسه إلى أولياء المقتول، فإمّا أن يقتلوه أو يعفوا عنه بالدّية أو بدونها، وإن كان في بعض الأعضاء وجب تسليم نفسه ليقتصّ منه في ذلك العضو إلى المستحقّ من المجنى عليه أو ورثته.

وأمّا في الحالة الثّالثة: فالواجب عليه أن يندم ويتوب إلى الله تعالى ويتأسّف على ما فعله ليخرج من حقّه، ثمّ أن يستحلّ المغتاب عنه

ليخرج عن مظلمته. هذا إن بلغه اغتيابه وإلاّ فلا يجب الإعتذار عند المحقق الطّوسي والعلاّمة رحمهما الله.

وقد ذكر الشّيخ الشّهيد الثّاني رحمه الله كيفية الإعتذار، وتفاصيله في كشف الرّيبة في أحكام الغيبة[٢٧٨].

هذا، وقال العلاّمة والشّيخ البهائي رحمهما الله: إنّ هذه التّوابع ليست بأجزاء من التّوبة الواجبة عليه، فإنّ العقاب سقط بالتّوبة، ثمّ إن قام المكلّف بالتّبعات وامتثل ما أمر به فيها، كان ذلك إتماماً للتّوبة من جهة المعنى، لأنّ ترك التّبعات لا يمنع من سقوط العقاب للتّوبة عمّا تاب منه، بل يسقط العقاب المتوعّد به، ويكون ترك القيام بالتّبعات المذكورة بمنزلة ذنوب مستأنفة يلزمه التّوبة منها[٢٧٩].

قال العلاّمة رحمه الله: نعم التّائب إذا فعل التّبعات بعد إظهار توبته كان ذلك دلالة على صدق النّدم، وإن لم يقم بها أمكن حمله دلالة على عدم صحة النّدم[٢٨٠].

---

(٢٧٨) الفصل الخامس في كفارة الغيبة: ٧٠.

(٢٧٩) الأربعين: الحديث الثّامن والثّلاثون في التّوبة وشرائطها: ٢٣١ ـ ٢٣٢.

(٢٨٠) كشف المراد في شرح تجريد الإعتقاد: ٥٧١.

وأشارا رحمهما الله بهذا إلى خلاف المعتزلة، حيث أنّهم ذهبوا إلى أنّ ردّ المظالم وحقوق الآدميين والقيام بالتّبعات شرط في صحّة

التّوبة، فقالوا: إنّه لا تصحّ التّوبة عن مظلمة دون الخروج عنها، ولا عن حقّ إلاّ بعد أدائه وارجاعه إلى صاحبه إن كان حياً موجوداً، وإلى ورثته إن كان قد مات، وعلى أيّ حال، فإنّ التّوابع المذكورة عندهم أجزأ من التّوبة... .

ثمّ الذّنوب:

هل تنقسم إلى كبائر وصغائر، أو أنّها غير منقسمة إلى هذا التّقسيم وأنّ الذّنوب جميعها كبائر؟!

إختلف أصحابنا في ذلك، فذهب الأكثر إلى الأوّل، إستناداً إلى الآيات الكريمة من القرآن العظيم:

منها قوله سبحانه: (**إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبائِرَ ما تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيمًا**)[٢٨١].

والأخبار الكثيرة المصرّحة بانقسام الذّنوب إلى صغائر وكبائر، حتّى أنّ طائفة من الأخبار جاءت لتعيين الكبائر ومقدارها وأنواعها[٢٨٢].

ولذلك فإنّهم اختلفوا في عددها لاختلاف الرّوايات الواردة في ذلك.

ثمّ اختلفوا أيضاً في معنى الكبيرة كذلك على أقوال:

فقيل: كلّ ذنب توعّد الله عليه بالعقاب في القرآن الكريم.

وقيل: كلّ ذنب رتّب عليه الشّارع حدّاً،أو صرّح فيه بالوعيد.

وقيل: كلّ ذنب يؤذن بقلّة إكتراث فاعله بالدّين.

وقيل: كلّ ذنب علم حرمته بدليل قاطع.

وقيل: كلّ ذنب توعّد عليه توعّداً شديداً في الكتاب والسّنة[٢٨٣].

وذهب جماعة من أكابر الطّائفة منهم الشّيخ المفيد والشيخ الطّبرسيّ رحمهما الله تبارك وتعالى إلى الثّاني، فقالوا: إنّ الذّنوب كلّها كبائر، لأنّ كلّ ما نهى الله تعالى عنه فهو معصية كبيرة... فالذّنوب كلّها مشتركة في كونها قبيحة، لكن بعضها أكبر من بعض كالزّنا بالنّسبة إلى تقبيل الأجنبية و لمسها، ولمسها بالنّسبة إلى النّظر إليها... وهكذا[٢٨٤].

وقد نسب الشّيخ الطّبرسيّ رحمه الله هذا القول إلى عامّة الأصحاب...[٢٨٥].

وعلى القول بانقسام الذّنوب إلى صغائر وكبائر، فهل التّوبة واجبة من كلّ ذنب مطلقاً، أو مختصّة بالكبائر، والصّغائر مكفّرة إن اجتنب من الكبائر؟!

---

(٢٨١) سورة النّساء، الآية: ٣١.

(٢٨٢) أنظر البحار ٨٥ / ٢٦.

(٢٨٣) أنظر ذخيرة المعاد ١ / ٣٠٤، وكفاية الأحكام ١ / ١٣٨، والحدائق النّاضرة ١٠ / ٤٦، والبحار ٨٥ / ٢٥.

(٢٨٤) أوائل المقالات: ٣٣٤، الرّقم ٩٢، والتّبيان في تفسير القرآن ٣ / ١٨٢ و ٩ / ٤٣٢ ـ ٤٣٣، ومجمع البيان ٣ / ٦٩، ومجمع البحرين ٤ / ١٠.

(٢٨٥) مجمع البيان، وتفسير جوامع الجامع ١ / ٣٩٢ ـ ٣٩٣، والتّبيان ٩ / ٤٣٢ حيث يقول: والمعاصي عندنا كلّها كبائرغير أنّ بعضها أكبر من بعض... .

ذهب جماعة إلى الأوّل، فقالوا: إنّه لا فرق في وجوب التّوبة بين الكبائر والصّغائر، فإنّ الآيات والرّوايات الآمرة بالتّوبة عامّة، ولإنّ ترك التّوبة من المعصية مطلقاً قبيح، ولأنّ التّوبة عن القبيح إنّما تجب لكونه قبيحاً، وهو عامّ.

وذهب جماعة ـ منهم الشّيخ البهائي والشّيخ المجلسي رحمهما الله[٢٨٦] ـ وجماعة من المعتزلة إلى أنّ اجتناب الكبائر يكفّر الصّغائر بظاهر الآية الكريمة وغيرها من الآيات والرّوايات، وحينئذ، فإنّ الصّغائر لا تحتاج إلى توبة.

واتّفقوا على أنّ الإصرار على الصّغيرة يلحقها بالكبيرة، فهي غير مكفّرة على هذا و بذلك تسقط العدالة.

واختلفوا في معنى الإصرار على أقوال:

الأوّل: الإكثار من فعلها سواء كانت متّحدة من حيث النّوع، أو مختلفة.

الثّاني: الإكثار من فعل النّوع الواحد.

الثّالث: الإكثار من فعلها مطلقاً، بحيث يكون ارتكابها أكثر من اجتنابها.

وقد ذكر هذه الأقوال الشّيخ المجلسي رحمه الله. وأشار إليها السّيد المحدّث الجزائرى.

وجاء في المحجّة البيضاء وجامع السّعادات والأنوار النّعمانية وغيرها ما هذا ملخّصه بتصرّف:

إنّ الصّغيرة قد تكبر بأسباب:

أحدها: الإصرار والمواظبة،ولذلك قال الصّادق عليه السّلام: لا صغيرة مع الإصرار، ولا كبيرة مع الإستغفار[٢٨٧].

وثانيها: إستصغار الذّنب، وعدم استعظامه، قال رسول الله صلّى الله عليه وآله: «إتّقوا المحقّرات من الذّنوب فإنّها لا تغفر...»[٢٨٨].

وقال أمير المؤمنين عليه السّلام: «أشدّ الذّنوب ما استخفّ به صاحبه»[٢٨٩].

وثالثها: أن يأتي بالصّغائر، ولا يبالي بفعلها، إغتراراً بحلم الله وستره.

ورابعها: السّرور بالصّغيرة، ولذلك قال أمير المؤمنين عليه السّلام: «سيئة تسؤك خير من حسنة تعجبك»[٢٩٠].

وخامسها: أن يذنب ويظهر ذنبه بأن يذكره بعد إتيانه، أو يأتي به في مشهد غيره.

وسادسها: أن يكون الآتي بالصّغيرة عالماً يقتدي به النّاس.[٢٩١]

---

(٢٨٦) البحار ٦ / ٤٢.

(٢٨٧) الكافي ٢ / ٢٨٨، الرّقم ١، والبحار ٨٥ / ٣٠.

(٢٨٨) الكافي ٢ / ٢٨٧، الرّقم ١، والبحار ٧٠ / ٣٤٥، الرّقم ٢٩ عنه، ولكن نقلاً عن أبي عبدالله عليه السّلام، وفي الكافي نفس المصدر الرّقم ٣ نحوه عن الرّسول صلّى الله عليه وآله وسلّم.

(٢٨٩) نهج البلاغة ٤ / ١١٠، الرّقم ٤٧٧، ووسائل الشّيعة ١٥ / ٣١٢، الرّقم ٧، والبحار ٧٠ / ٣٦٤، الرّقم ٩٦، كلاهما عن النّهج.

(٢٩٠) عدّة الدّاعي: ٢٢٢، وشرح النّهج ٢٠ / ٣١٧، الرّقم ٦٤٢، والبحار ٦٩ / ٣٢١، الرّقم ٣٧ و ٧٥ / ٦٧، الرّقم ٧.

ولقد ورد في القرآن الكريم الأمر بالتّوبة النّصوح، وذلك حيث قال سبحانه وتعالى: (**يا أَيُّهَا الَّذينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا**)[٢٩٢]، وقد ذكر علماء التّفسير والأخلاق وجوهاً عديدة في معنى التّوبة النّصوح، وإليك بعضها:

١ ـ إنّ النّصوح في الآية بمعنى: النّصاحة، وهي الخياطة كما نصّ عليه اللّغويون، لأنّها ـ أي التّوبة ـ تنصح من الدّين ما مزّقته الذّنوب، كما يجمع الخياط بين القطع[٢٩٣].

٢ ـ إنّ المعنى: توبوا توبةً تنصحون بها أنفسكم من حيث كونها على أكمل وجه[٢٩٤].

٣ ـ إنّ المعنى: توبةً تنصح النّاس، أي تدعوهم إلى مثلها[٢٩٥].

٤ ـ إنّ المعنى: توبةً خالصةً لوجه الله لا يشوبها شيء كالخوف من النّار، أو غيرها أو طمع في الجنّة أو غيرها[٢٩٦].

هذا بعض ما ذكروه، لكن جاء في رواية: «أن يكون باطن الرّجل كظاهره وأفضل»[٢٩٧]. وفي أخرى: «أن يتوب الرّجل توبةً صادقةً وينوي أن لا يعود إلى الذّنب أبداً»[٢٩٨].

٧ ـ فوائدها

إنّ للتّوبة فوائد كثيرة، ومنافع جمّة، فإنّها تنجي من عذاب الله في الآخرة، وتنظّف القلب، وتهذبّ النّفس، وتقرّب العبد من ربّه، وتورث محبّته في قلبه، وتخلص صاحبها من البلايا والمصائب والفتن الدّنيوية... إلى غير ذلك من الآثار المترتّبة على الذّنوب.

فقد قال أمير المؤمنين عليه السّلام في كلام له: «فما زالت نعمة، ولا نضارة عيش، إلاّ بذنوب اجترحوا، إنّ الله ليس بظلاّم للعبيد، ولو أنّهم استقبلوا ذلك بالدّعاء والإنابة لم تنزل»[٢٩٩].

وقد تقدّم قول الإمام الصّادق عليه السّلام: «كان أبي يقول: ما من شيء أفسد للقلب من خطيئة، إنّ القلب ليواقع الخطيئة فلا تزال به حتّى تغلب عليه، فيصير أعلاه أسفله»[٣٠٠].

---

(٢٩١) جامع السّعادات ٣ / ٥٩ ـ ٦١، والمحجّة البيضاء.

(٢٩٢) سورة التّحريم، الآية: ٨ .

(٢٩٣) العين ٣ / ١١٩، ولسان العرب ٢ / ٦١٦ ـ ٦١٧، والبحار ٦ / ١٧ و ٨٣ / ١٤٥.

(٢٩٤) البحار ٦ / ١٧، وشرح أصول الكافي ١٠ / ١٦٩.

(٢٩٥) البحار ٨٣ / ١٤٥.

(٢٩٦) البحار ٦ / ١٧ و ٨٣ / ١٤٥، والتّبيان في تفسير القرآن ١٠ / ٥١، ومجمع البيان ١٠ / ٦٢.

(٢٩٧) معاني الأخبار: ١٧٤ عن أبي عبدالله عليه السّلام، ووسائل الشّيعة ١٦ / ٧٧، الرّقم ٢، والبحار ٦ / ٢٢، الرّقم ٢٢ عن معاني الأخبار.

(٢٩٨) وسائل الشّيعة ١٦ / ٧٧، الرّقم ٣، والبحار ٦ / ٢٢، الرّقم ٢٣ مثله نقلاً عن معاني الأخبار: ١٧٤ وفيه كذا: وقد روي أنّ التّوبة النّصوح هو أن يتوب الرّجل من ذنب وينوي أن لا يعود إليه أبداً.

(٢٩٩) الخصال: ٦٢٤، حديث أربعمائة وفيه لم تزل بدل: لم تنزل، والبحار ١٠ / ١٠٢ وفيه لما تنزل بدل:لم تنزل.

(٣٠٠) تقدّم في الصفحة: ١٠١.

وقال عليه السّلام: «أما أنّه ليس من عرق يضرب ولا نكبة ولا صداع ولا مرض، إلاّ بذنب، وذلك قول الله عزّوجلّ في كتابه: (**وَما أَصابَكُمْ مِنْ مُصيبَة فَبِما كَسَبَتْ أَيْديكُمْ وَيَعْفُوا عَنْ كَثير**). قال: ثمّ قال: وما يعفو اللهّ أكثر ممّا يؤاخذ به»[٣٠١].

وقال الإمام الباقر عليه السّلام: «إنّ العبد ليذنب الذّنب فيزوى عنه الرّزق»[٣٠٢].

وقال الإمام الصّادق عليه السّلام: «ما أنعم اللهّ على عبد نعمة فسلبها إياه حتّى يذنب ذنباً يستحقّ بذلك السّلب»[٣٠٣].

وقال الإمام الرّضا عليه السّلام: «كلّما أحدث العباد من الذّنوب ما لم يكونوا يعملون، أحدث اللهّ لهم من البلاء ما لم يكونوا يعرفون»[٣٠٤].

إلى غيرها من الرّوايات الناصّة على الآثار الدّنيوية والأخروية للذّنوب.

فالتّوبة من الذّنوب نجاة من آثارها بفضل اللهّ ورحمته.

٨ ـ عمومها

تجب التّوبة على عامّة الأشخاص في عامّة الأحوال، فلقد قال اللهّ عزّوجلّ: (**وَتُوبُوا إِلَى اللهِّ جَميعًا**)[٣٠٥]، فلا فرق بين شخص وآخر، ولا بين حالة وأخرى.

وذلك: لأنّ كل واحد من أفراد الإنسان لا يخلو عن معصية في وقت من الأوقات، وحالة من الحالات، وذلك لوجود الغرائز، وتوفّر الشّهوات ـ الّتي هي جنود الشّياطين ـ فيه.

إلاّ أنّ ذنوب الأنبياء والأوصياء عليهم الصّلاة والسّلام ليست كذنوب سائر النّاس، ولذلك فإنّ توبتهم تختلف عن توبتنا.

إنّ ذنوب الأنبياء والأوصياء عليهم السّلام تتمثّل في ترك الأولى، وترك دوام الذّكر، وحرمانهم زيادة الأجر والثّواب باشتغالهم بالمباحات.

إنّهم يأنسون بقرب اللهّ وذكره، والتّفكر في جلالته وعظمته، فإذا اشتغلوا بأكل أو شرب أو غير ذلك من المباحات إستغفروا اللهّ وتابوا إليه لاعتبارهم ذلك ذنباً.

هذا خلاصة ما ذكره الشّيخ الإربلي رحمه اللهّ[٣٠٦].

---

(٣٠١) الكافي ٢ / ٢٦٩، الرّقم ٣، والبحار ٧٠ / ٣١٥، الرّقم ٣ عنه، و ٧٨ / ٢٠٠، الرّقم ٥٧ عن مكارم الأخلاق: ٤١١.

(٣٠٢) الكافي ٢ / ٢٧٠، الرّقم ٨ ، ووسائل الشّيعة ١٥ / ٣٠١، الرّقم ٩، والبحار ٧٠ / ٣١٨، الرّقم ٦ عن الكافي.

(٣٠٣) الكافي ٢ / ٢٧٤، الرّقم ٢٤، ووسائل الشّيعة ١٥ / ٣٠٤، الرّقم ١٨، والبحار ٧٠ / ٣٣٩، الرّقم ١ عن الكافي.

(٣٠٤) الكافي ٢ / ٢٧٥، الرّقم ٢٩، ووسائل الشّيعة ١٥ / ٣٠٤، الرّقم ٢١، والبحار ٧٠ / ٣٤٣، الرّقم ٢٦ عن الكافي.

(٣٠٥) سورة النّور، الآية: ٣١.

(٣٠٦) كشف الغمّة في معرفة الأئمة ٢ / ٧٨٠، آخر أحوال الإمام الكاظم عليه السلام.

وهذا الوجه مذكور في بعض كتب العامّة أيضاً.[٣٠٧]

أو أنّ توبتهم هذه، واستغفارهم ذاك محمول على التّواضع والعبودية لله سبحانه وتعالى، أو أنّهم يتوبون إليه عزّوجلّ على لسان أمّتهم ومحبّيهم.

وإنّما تفسّر توبتهم بهذه المعاني لثبوت عصمتهم وطهارتهم عليهم السّلام ولأنّهم عباد الله المخلصين الّذين لا سلطان لإبليس عليهم، فلا يتمكن من إغوائهم... إنّهم ـ بإجماع الإمامية ـ معصومون من جميع الذّنوب صغائرها وكبائرها، قبل النّبوة والإمامة وبعدهما في جميع الأفعال والأقوال[٣٠٨].

٩ ـ وجوب العمل بعدها

ويجب العمل بعد التّوبة لإزالة آثار الذّنب المتراكمة على القلب، والمؤثّرة في النّفس، فإنّ ممّا لا شك فيه: إنّ الذّنوب تحدث ظلمة في القلب والنّفس، ولذلك يقول النّبيّ صلّى الله عليه وآله: «أتبع السّيئة الحسنة تمحها»[٣٠٩].

ويقول الإمام الباقرعليه السّلام لمحمّد بن مسلم رحمه الله: «يا محمّد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له، فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التّوبة والمغفرة...» وقد تقدّم بتمامه[٣١٠].

ويقول الإمام عليه السّلام أيضاً: «ما أحسن الحسنات بعد السّيئات، وما أقبح السّيئات بعد الحسنات»[٣١١].

كما أنّ عليه أن يطيل الحزن، ويسكب الدّموع ويقلّل الأكل... .

١٠ ـ مسائل

وإليك في خاتمة البحث إشارات إلى عدّة مسائل مطروحة في باب التوبة في الكتب المطوّلة:

الأولى: هل يصحّ أن يتوب من ذنب دون ذنب أم لا؟

ذهب جماعة إلى الأوّل، وآخرون إلى الثّاني.

الثّانية: هل يجب أن يذكر ذنوبه بالتّفصيل أم لا؟

ذهب عبد الجبّارالمعتزلي إلى الأوّل... واستشكله المحقّق الطّوسي رحمه الله.

الثّالثة: هل يجب تجديد التّوبة أم لا؟

ذهب بعضهم إلى الأوّل، وبعضهم إلى الثّاني. وتوقّف المحقّق الطّوسي رحمه الله في المسألة.

---

(٣٠٧) انظر: تفسير النّسفي ٤ / ١١٦.

(٣٠٨) أنظر تنزيه الأنبياء: ١٥ و ٢٣، والإقتصاد: ١٦٦، والبحار ١١ / ٧٢ و ٢٤ / ٣٤.

(٣٠٩) التّحفة السّنية: ٢٨، والبحار ٦٢ / ٣٩٣، الرّقم ٦٣، وتفسير جوامع الجامع ٢ / ٢٦٠، وتفسير الأصفى ١ / ٦٣٠: وفي تفسير القمّي ١ / ٣٦٤ هكذا:... فإذا عملت سيئة فاتبعها بحسنة تمحها سريعاً.

(٣١٠) تقدّم في الصفحة: ١٠٥.

(٣١١) الكافي ٢ / ٤٥٨، الرّقم ١٨، ووسائل الشّيعة ١٦ / ١٠٤، الرّقم ٤، والبحار ٦٨ / ٢٤٢، الرّقم ١.

الرّابعة: باب التّوبة مفتوح، إلاّ أنّها لا تقبل عند معاينة الموت إجماعاً. وهو صريح القرآن.

ولكن اختلف في التّوبة عند ظهور أشراط السّاعة، فقيل: تصحّ، وقيل: لا تصحّ.

وقد تقدّم أنّها واجبة على الفور، فتأخيرها أيضاً ذنب آخر تجب التّوبة منه.

الخامسة: صرّح أكثر فقهائنا باستحباب الغسل للتّوبة بعدها مطلقاً، وأضاف الشّيخ البهائي رحمه الله الصّلاة مع الغسل بقوله: ولا يخفى أنّه كما تضمّن الأمر بالغسل، تضمّن الأمر بالصّلاة أيضاً، ولم يتعرّض أكثر فقهائنا رضي الله عنهم إلاّ للغسل(٣١٢).

(٣١٢) كتاب الأربعين: ٢٢٩.

المحتويات

البحث الخامس: في التوبة